# الكتـاب الحادي عشر

## الفصل الأول

**1**- تجاور أوروبا آسيا، وتتلامس معها على طول نهر تانايس. ولذلك ينبغي أن ننتقل لوصف هذا الجزء من العالم؛ ولتحقيق مزيد من الوضوح نقسمه إلى حدوده الطبيعية المعروفة. فما فعله إيراتوسفين بالنسبة للمعمورة كلّها، ينبغي عليّ أن أفعله بالنسبة لآسيا.

**2**- تطوّق جبال طوروس هذه القارّة في الوسط تقريباً، فتمتدّ من الغرب إلى الشرق، وهي تبقي في غضون ذلك جزءاً منها باتجاه الشمال والجزء الآخر باتجاه الجنوب. ويدعو الإغريق أحد الجزأين «بالواقع على هذا الجانب»، والجزء الآخر «بالواقع على ذلك الجانب من طوروس». وأنا كنت قد أشرت إلى هذا سابقاً[1]، وينبغي عليّ الآن أن أكرر ما كنت قد قلته لكي أذكّر وحسب.

**3**- ففي كثير من الأماكن يصل عرض هذه الجبال إلى 3000 مرحلة، أمّا طولها فمساوٍ لطول آسيا، إذ يبلغ ما يقارب 45.000 مرحلة (ابتداء من الساحل المقابل لرودوس، حتّى أطراف الهند وسكيثيا شرقاً).

**4**- وهي تنقسم إلى أجزاء كثيرة تحمل تسميات مختلفة، وهذه الأجزاء بدورها منفصل بعضها عن بعض بحدود أقلّ أو أكثر وضوحاً. ولكنْ بما أنّ بعض الأقوام لا يحظى بشهرة واسعة، وبعضها الآخر ذائع الصيت (مثل بارثيا، وميديا، وأرمينيا، وبعض القبدوقيين، والكيليكيين، والبيسيديين)، فإن أولئك الذين يقطنون بأعداد غفيرة في أجزائها الشمالية، ينبغي إنزالهم هنا[2]، والذين يقطنون الأجزاء الجنوبية، ينبغي إنزالهم هناك[3]؛ أمّا الذين يسكنون الأجزاء الوسطى من هذه الجبال، فإن تشابه المناخ عندهم يجعلنا نلحقهم بالشمال تقريباً، لأنّ المناخ في الوسط بارد، وفي

الأجزاء الجنوبية دافئ. وكلّ الأنهار التي تنبع من طوروس تجري بالاتجاه المعاكس تقريباً، بعضها نحو الأجزاء الشمالية، والأخرى نحو الأجزاء الجنوبية (في أقل تقدير عند بداية جريانها، مع أن بعضاً منها يتّجه بعد ذلك غرباً أو شرقاً)؛ وهي تمثّل معالم معروفة عندما نقسم آسيا بهذه الجبال إلى شطرين. وعلى نحو مماثل، فإن البحر الذي على هذا الجانب من الأعمدة[4]، والذي يمتدّ بجزئه الأعظم على خطّ مستقيم تقريباً، مع هذه الجبال، يمكن أن يعدّ ملائماً لتقسيم أوروبا وليبيا إلى قارتين، لأنه يشكّل حدّاً لجزأي العالم هذين.

**5**- إن من ينتقل في الوصف الجغرافي من أوروبا إلى آسيا، يصل أوّل ما يصل إلى المناطق الشمالية. ولذلك يتأتّى البدء بها. ومن البلدان الواقعة في أقصى الشمال [سوف أبدأ وصفي] أولاً من المناطق الواقعة على تانايس، الذي اتخذته حدّاً بين أوروبا وآسيا. وتشبه هذه المناطق شبه الجزيرة إلى حدّ ما، لأنّ نهر تانايس وبحيرة ميوتيدا يحدّانها من الغرب وصولاً إلى البسبور وأجزاء ساحل البونتس الإيفيكسيني التي تنتهي عند كولهيدا؛ ويشاطئها المحيط من الشمال حتّى ثغر بحر قزوين؛ ويحدّها من الشرق هذا البحر نفسه حتّى حدود ألبانيا وأرمينيا حيث يصبّ نهرا كير وأراكس في البحر؛ ويجري أراكس عبر أرمينيا، بينما يجري كير عبر إيبيريا وألبانيا؛ وأخيراً، يحدّ هذه المناطق من الجنوب المدى الممتدّ من مصبّ كير حتّى كولهيدا على مسافة قدرها 3000 مرحلة من البحر إلى البحر عبر ألبانيا وإيبيريا بحيث تأخذ شكل برزخ. ولكنّ هناك كتّاباً يجعلون من هذا البرزخ ضيقاً إلى درجة أنّ البحرين يغمرانه، وهذا ما يفعله كليتارخ مثلاً، بيد أن مثل هذه الآراء لا تستحق المناقشة. ويحدّد بوسيدونيوس عرض هذا البرزخ بـ 1500 مرحلة، وهذا يساوي عرض البرزخ الذي يمتدّ من بيلوسي إلى البحر الأحمر. ويقول بوسيدونيوس: «أنا أظنّ أن البرزخ الذي يمتدّ من ميوتيدا إلى المحيط يختلف عنه [من حيث العرض] بعض الاختلاف».

**6**- وأنا لا أستطيع أن أتخيّل كيف يمكن الوثوق ببوسيدونيوس فيما يخصّ ما هو مجهول (وهذا ما ليس بمقدوره أن يقول عنه أيّ شيء حقيقي)، إذا كان يتحدّث بلا عقلانية عمّا هو معلوم؛ مع أنه كان صديقاً لبومبيوس الذي شنّ حملة على الإيبيريين والألبانيين وصل فيها حتّى البحرين من الجهتين: بحر قزوين وبحر كولهيدا[5]. وعلى أيّ حال يقال، إنه عندما كان بومبيوس في رودوس أثناء حربه على القراصنة (وقد عزم بعد ذلك على أن يتحرّك مباشرة ضدّ ميتريدات والقبائل التي

تقطن مناطق بحر قزوين)، قدّر له أن يشهد واحدة من جلسات بوسيدونيوس. ولدى رحيله سأل بومبيوس بوسيدونيوس عمّا إذا كان يريد أن يكلّفه بأمر ما. فأجابه بوسيدونيوس:

**احرص أن تبزّ الآخرين، وتبقى دوماً متألقاً.**

(الإلياذا VI، 208)

وينبغي أن نضيف إلى هذه الرواية، أن بوسيدونيوس كتب تاريخ بومبيوس. ولهذا أيضاً كان لزاماً عليه أن يتحرّى الحقيقة أكثر.

**7**- وكان يمكن أن يكون الشطر الثاني، هو المنطقة الواقعة إلى الأعلى من البحر الهركاني الذي ندعوه نحن بحر قزوين، وصولاً إلى السكيثيين الذين يقطنون على مقربة من الهند. ثمّ الشطر الثالث، وهو المنطقة التي تجاور البرزخ المذكور، وكذلك المناطق التي تليها مباشرة بعد البرزخ والبوابات القزوينية التي تتألّف من البلدان الواقعة على هذا الجانب من طوروس والأقرب إلى أوروبا. وهذه المناطق، هي ميديا، وأرمينيا، وقبدوقيا، والبلدان الواقعة بينها. وأخيراً، الشطر الرابع الذي يتألّف من الأراضي الواقعة على هذا الجانب من هاليس[6] وعلى السلسلة الجبلية نفسها، كما على جانبها الآخر، لأنها تدخل إطار شبه الجزيرة التي يشكّلها البرزخ الفاصل بين بحر البونتس والبحر الكيليكي. أمّا باقي البلدان، وتحديداً تلك الواقعة وراء طوروس، فإنني أُلحق بها الهند وأريانا وصولاً إلى الأقوام التي تنتشر حتّى البحر الفارسي، والخليج العربي، ونهر النيل، والبحر المصري وبحر إيسّ.

## الفصل الثاني

**1**- في هذا الموقع الجغرافي يقطن الشطر الأول أي البلدان الشمالية حتّى المحيط- بعض السكيثيين الرحّل الذين يعيشون في مركبات، وأبعد منهم في عمق البلاد يقطن السارماثيون (وهم سكيثيون أيضاً)، والآورسيون، والسيراكيون الذين ينتشرون نحو الجنوب حتّى جبال القفقاس؛ وبعض هؤلاء بدو رحّل وبعضهم الآخر يعيش في خيام ويعمل في الزراعة. ويسكن الميوتيون حول بحيرة ميوتيدا. ويقع عند البحر، الشطر الآسيوي من البسبور ومنطقة سيندا. ويقطن وراءها الآخيون، والزيغيّون، والجينيوخيون، والكيركيتيون، والماكروبوغونيون[1]. وإلى الأعلى من هذه المناطق

يقع كهف الثتيروفاغيين[2]. ووراء الجينيوخيين تقع كولهيدا الواقعة عند سفوح جبال القفقاس والجبال الموسخية. ولكن بما أن نهر تانايس هو الحد الفاصل بين أوروبا وآسيا، فإنني سأبدأ من هنا وصفي لباقي البلدان.

**2**- يجري تانايس من الأجزاء الشمالية، ولكن ليس باتجاه معاكس تماماً لجريان النيل، كما يظن أكثرهم، إنما أكثر انحرافاً منه نحو الشرق، [وكما نهر النيل] فإنّ منابع تانايس مجهولة. ولكنّ جزءاً كبيراً من مجرى النيل معروف، لأنّ هذا النهر يجري عبر بلاد الوصول إليه فيها سهل ومتاح، وهو نفسه صالح للملاحة لمسافات طويلة صعوداً مع مجراه. ونحن نعرف مصبّ تانايس (له مصبّان في الشطر الشمالي من ميوتيدا، يبعد واحدهما عن الآخر 60 مرحلة)؛ ولكنّ جزءاً صغيراً من مجرى النهر، إلى الأعلى من مصبّه، وحده المعروف بسبب الصقيع والشحّ الذي يستطيع السكّان تحمّله لأنّهم يتناولون اللحوم، ومشتقات الحليب على عادة البدو الرحل، ولكنّ الغرباء لا يستطيعون تحمّل ذلك. وعلاوة على هذا فإنّ الرحّل الذين لا يقيمون علاقات مع الأقوام الأخرى، يستخدمون تفوّقهم العددي وقوّتهم لقطع المسالك في شتّى مناطق البلاد السالكة، وفي أجزاء النهر الصالحة للملاحة. ولهذا السبب ظنّ بعضهم أن منابع هذا النهر في جبال القفقاس؛ وإنه يجري أولاً شمالاً ثمّ ينعطف ويصبّ في ميوتيدا (ويتّفق مع هؤلاء في الرأي ثيوفانوس الميثيليني)، وعلى الضدّ من هذا، بحسب معطيات آخرين، أنّ تانايس ينبع من المناطق الواقعة في أعالي إيستر، بيد أنهم لا يسوقون أي براهين تؤكّد على أن منابع النهر تقع بعيداً إلى هذا الحدّ، أو في «أقاليم»[3] أخرى، كما لو أن النهر لا يمكن أن ينبع من مناطق شمالية قريبة.

**3**- وتقوم على النهر والبحيرة مدينة تحمل الاسم عينه، بناها الإغريق بعد أن استولوا على البسبور. ومنذ وقت قريب دمّرها الملك بوليمون[4] لأنها أبت أن تخضع له. لقد كانت هذه المدينة مركزاً تجارياً مشتركاً للبدو الرحل الأوروبيين والآسيويين من جهة، وللذين يدخلون البحيرة بسفنهم مبحرين من البسبور من جهة أخرى، وقد حمل إليها البدو العبيد، والجلود وسوى ذلك من السلع التي يمكن أن تجدها لدى البدو، بينما حمل تجار السفن الألبسة، والنبيذ وما إلى ذلك من مستلزمات العيش المتحضر ليبادلوها بما كان يحمله البدو الرحل. وعلى بعد 100 مرحلة أمام هذا المركز التجاري تقع جزيرة آلوبيكيا التي يعيش فيها خليط من المستوطنين. وثمّة على مقربة في البحيرة جزر صغيرة أخرى. ويبعد تانايس[5] عن مدخله في ميوتيدا 2200 مرحلة على

خطّ مباشر نحو الشمال؛ لكنّ المسافة تغدو أكبر بعض الشيء إذا أبحرت على طول الشاطئ.

**4**- ولدى إبحارنا على طول الشاطئ انطلاقاً من تانايس، يطالعنا أول ما يطالعنا على بعد 800 مرحلة، نهر يدعى رومبيت الكبير، حيث تقع أكبر مواقع صيد الأسماك المعدّة للتمليح. وعلى بعد 800 مرحلة أخرى يقع رومبيت الصغير ورأس بحرية، وتقع هناك أيضاً أماكن أصغر لصيد الأسماك. وبالنسبة للذين يعيشون عند رومبيت الكبير، تشكل الجزر الصغيرة محطات لصيد الأسماك، أمّا عند رومبيت الصغير فإن الميوتيين أنفسهم يعملون بهذه الحرفة. فالميوتيون ينتشرون على امتداد هذا الساحل كله؛ ومع أنهم يعملون في الزراعة، إلاّ أنهم لا يقلّون عن البدو الرحل في إتقان فنون الحرب. وهم يتوزّعون على عدد من القبائل، ولكنّ الذين يعيشون منهم على مقربة من تانايس، هم الأكثر توحّشاً، أمّا الذين يجاورون منهم البسبور، فإنهم أكثر تحضّراً. وتبلغ المسافة من رومبيت الصغير إلى تيرامبا وأنتيكيتوس 600 مرحلة؛ ثمّ 120 مرحلة إلى مستوطنة كيميريك التي تشكل نقطة انطلاق للإبحار في البحيرة. ويروى أن على هذه الطريق عدّة نقاط مراقبة(6) للكلازومينيين.

**5**- وفي الزمن الماضي كانت كيميريك مدينة في شبه الجزيرة، فأقفلت البرزخ بخندق وساتر ترابي. وفي زمن ما كان الكيميريون يسيطرون على البسبور، ولذلك دُعي هذا المضيق بالبسبور الكيميري. والكيميريون قبيلة كانت تقلق بغزواتها سكّان الأجزاء الداخلية من البلاد على الجانب اليميني من البونتس وصولاً إلى إيونيا. ولكنّ السكيثيين طردوهم من هذه المنطقة، ثمّ طرد الإغريق هؤلاء الأخيرين، وأسّسوا هنا بانتيكابيوس ومدن البسبور الأخرى.

**6**- وبعد ذلك، إلى قرية أخيللوس، حيث يقع معبد أخيليس، 20 مرحلة. والمضيق هنا عند مدخل ميوتيدا أضيق، فلا يتجاوز عرضه 20 مرحلة، أو أكثر. وعلى الساحل الآخر تقع قرية ميرميكي؛ وتقع غير بعيد عنها هيراقليا وبارفينيوس(7).

**7**- ومن هنا إلى نصب ساتير 90 مرحلة. وهذا عبارة عن تلّ صناعي أُنشئ على رأس بحرية تخليداً لذكرى واحد من أشهر ملوك البسبور(8).

**8**- وغير بعيد تقع قرية باتراي التي تبعد 130 مرحلة عن قرية كوروكوندما. وهذه الأخيرة هي آخر موقع في البسبور الكيميري. فهكذا يدعى المضيق الواقع عند مدخل ميوتيدا؛ ويمتدّ هذا المضيق من الثغور الواقعة بين أخيللوس وميرميكي وصولاً

إلى كوروكونداما وقرية صغيرة تُدعى أكرا تقع في الجهة المقابلة في منطقة البانتيكابيين؛ ويفصل أكرا عن كوروكانداما مضيق عرضه 70 مرحلة. ويمتدّ الجليد إلى هذه الأنحاء[9] عندما تتجمّد مياه ميوتيدا وقت الصقيع، ويغدو السير عليها أمراً ممكناً. وتنتشر المراسي الملائمة في كلّ مكان من هذا المضيق.

**9-** وتقع فوق كوروكونداما بحيرة كبيرة تدعى كوروكونداميتس، على اسم هذه القرية. وعلى بعد 10 مراحل من القرية تصبّ البحيرة في البحر. ويصبّ في هذه البحيرة أحد فروع نهر أنتيكيتوس ويشكّل جزيرة تشاطئها هذه البحيرة، وميوتيدا والنهر. ويدعو بعضهم هذا النهر هيبانيس أيضاً، على اسم النهر الواقع عند مدينة بوريسفين.

**10-** ولدى الدخول إلى كوروكانداميتس تقع مدينة مهمّة تدعى فاناغوريا، وتقع هناك أيضاً مدينة كيبي، ومدينة هيرموناسّا، ومدينة أباتور- معبد أفروديت. وتقع فاناغوريا وكيبي على الجزيرة المذكورة لدى الدخول إلى البحيرة من جهة اليسار، أمّا هيرموناسّا وأباتور فتقعان وراء هيبانيس في منطقة سيندا. وفي هذه الأخيرة يقع مكان غوركيبيا وهي عاصمة مملكة السينديين، غير بعيد عن البحر، وتقع هنا أيضاً أبوراكا. وتُدعى القبائل الخاضعة لحكّام البسبور كلّها بالقبائل البسبورية. والمدينة الرئيسة للبسبوريين الأوروبيين، هي مدينة بانتيكابيوس، أمّا مدينة البسبوريين الآسيويين الرئيسة فهي فاناغوريوس (لأنّ هذه المدينة تُدعى هكذا). ومن الواضح أن فاناغوريا كانت مركزاً لعبور البضائع الواردة من ميوتيدا، ومن البلاد البربرية الواقعة إلى الأعلى، أمّا بانتيكابيوس فكانت مركزاً لعبور البضائع الواردة إلى هناك من البحر. ويقوم في فاناغوريا معبد أفروديت أباتوروس الشهير. ولتفسير الصفة البدئية لهذه الإلهة، يروون أسطورة تقول: عندما هاجم العمالقة الإلهة هنا، طلبت العون من هرقل وأخفته في أحد الكهوف، ثمّ أخذت تستقبل العمالقة فرادى، لكي يقتلهم هرقل غدراً واحداً واحداً[10].

**11-** وينتمي إلى الميوتيين، السينديون أنفسهم والدانداريون، والتورياتيون، والآغريون، والأريخيون، وكذلك التاربيتيون، الأبيدياكينيون، والسيتاكينيون، والدوسيكون وبعض الأقوام الأخرى. وينتمي إليهم الأسبوجيانيون الذين يقطنون في مكان بين فاناغوريا وغورغيبيا امتداده حوالي 500 مرحلة. وعندما هاجمهم الملك بوليمون متذرعاً بعقد معاهدة صداقة، ولم ينجح مع ذلك في إخفاء أغراضه الحقيقية،

تمكنوا من خداعه فأخذوه أسيراً ثمّ قتلوه. لقد كان فريق من الميوتيين الآسيويين تابعاً لمالكيّ المركز التجاري القائم على تانايس، والفريق الآخر تابعاً للبسبوريين. بيد أن الفريقين كانا يثوران بين وقت وآخر ضدّ حكّامهما. وكان حكّام البسبوريين يستولون في أحيان كثيرة على المناطق الممتدة حتّى تانايس، خاصة آخر حكّامهم: فارناك، وأساندرس، وبوليمون. ويقولون إنّ فارناك نظّف يوماً قناة قديمة وساق عبرها نهر هيبانيس إلى بلاد الداندارين وأغرقها.

**12-** بعد منطقة سيندا وغورغيبيا الواقعتين على البحر، يأتي ساحل الآخيين، والزيفيين، الجينيوخيين الصخري الخالي أكثره من المراسي، لأنه يشكّل جزءاً من القفقاس. وتعيش هذه الأقوام على القرصنة البحرية، التي يستخدمون فيها قوارب صغيرة ضيّقة وسريعة لا تتسع لأكثر من 25 شخصاً، ونادراً 30 شخصاً. وقد دعا الإغريق هذه القوارب «كاماري»[11]. ويقولون إن هذه الآخيا استوطنها الآخيون الثيوتيون من قوّات ياسون، بينما سكن اللاكونيون جينيوخيا؛ وتزعّم هؤلاء الأخيرين كريكاس[12] وأمفيستراتوس، حوذيا الديوسكوري؛ وعلى أغلب الظن أن الجينخيين[13] أخذوا اسمهم منهما. لقد كان هؤلاء يعدّون أساطيل صغيرة من مثل هذه «الكاماري» ويغيرون على السفن التجارية، أو حتّى على بلاد أو مدينة، وعلى هذا النحو سيطروا على البحر. وفي بعض الأحيان كانوا يتلقّون العون من سكّان البسبور، إذ كان هؤلاء يقدمون لهم مراسيهم، وأسواقهم لبيع غنائمهم. وعندما يرجعون إلى ديارهم، كانوا يحملون «كاماراتهم» هذه على أكتافهم، بسبب افتقار سواحلهم للمراسي، ويدخلون بها إلى الغابات حيث يعيشون ويحرثون أراضيهم الشحيحة. وعندما يحين موعد الإبحار، يحملون قواربهم من جديد إلى البحر. وكان هذا هو ما كانوا يفعلونه أيضاً في البلدان الأجنبية التي كانوا يعرفون مناطق الغابات فيها معرفة جيّدة؛ فقد كانوا يخفون «كاماراتهم» هناك ثمّ يتجوّلون في الأنحاء ليلاً ونهاراً يخطفون الناس ليبيعوهم عبيداً. لكنّهم قبل ذلك كانوا يعلنون للمخطوفين أنهم على استعداد لإخلاء سبيلهم إذا ما دفعوا فدية، ثمّ يخبرون أهلهم بذلك بعد أن يخرجوا إلى عرض البحر. وفي الأراضي الخاضعة لحكم الملوك، كان هؤلاء يقدّمون العون لضحايا العنف؛ كما كانوا من جانبهم يهاجمون القراصنة، وإذ يستولون على «كاماراتهم» يعودون بها أدراجهم مع طواقمها. لكنّ المناطق الخاضعة للرومان عاجزة عن مقاومة هذا الشرّ بسبب لامبالاة الولاة الذين يرسلونهم إلى هناك.

**13**- إنّ هـذا هـو نمـط عـيش هـذه الأقـوام. ويـدير شـؤونهم أشـخاص يـدعون «سـكيبتوخي»[14]، وهـؤلاء بـدورهم خاضـعون لـتيران أو لملـوك. فقـد كـان عنـد الجينيوخيين مثلاً، أربعة ملوك، عندما عبر أراضيهم ميتريدات إيفباتور المطرود من أرض آبائه وأجداده إلى البسبور. فقد تبيّن أن عبور هذه البلاد سهل يسير؛ واضطر ميتريدات إلى أن يصرف النظر عن عبور بلاد الزيغيين لأنها وعرة ومقفرة، وعانى صعوبات جمّة حتّى تمكّن من المسير على طول الساحل، فالشطر الأكبر من الطريق قطعه على مقربة من البحر إلى أن بلغ بلاد الآخيين. وبعون من هؤلاء نجح الملك في أن يصل إلى فاسيس قاطعاً طريقاً امتدادها أقلّ من 4000 مرحلة بقليل.

**14**- من كوروكونداما تتّجه الطريق البحرية مباشرة نحو الشرق. وعلى بعد 180 مرحلة منها تقع ميناء سيندا ومدينة سيندا. وبعد 400 مرحلة تأتي باتي، وهي قرية ومرسى، حيث يظنّون أنه هناك نحو الجنوب، قبالة هذا الساحل تقريباً تقع سينوبس، مثلما تقع رأس كارامبيس البحرية (التي جرى الحديث عنها سابقاً)[15] قبالة كريوميتوبون. وبعد باتي يذكر أرتيميدور ساحل الكيركيتيين (الذي تقع عليه مراس وقرى) الذي يقارب طوله 850 مرحلة؛ يليه ساحل الآخيين، وطوله 500 مرحلة؛ ثمّ ساحل الجينيوخيين، وطوله 1000 مرحلة؛ فساحل البيتيونت الكبير، وطوله 360 مرحلة وصولاً إلى ديوسكوريادس. أمّا مؤرّخو حروب ميتريرات الذين يستحقّون كلّ الثقة، فإنهم على الضدّ من هذا يذكرون الآخيين أولاً، ثمّ الزيغيين، فالجينيوخيين، وبعد ذلك الكيركيتيين، والماسخيين، والكولهيين، والثتيروفاغيين الذين يقطنون إلى الأعلى منهم، والسانيين، وباقي الأقوام الصغيرة الأخرى القريبة من القفقاس. وفي الأوّل يمتدّ الساحل شرقاً، كما كنت قد أسلفت، ويتّجه جنوباً، لكنّه ابتداء من الباتيين ينعطف قليلاً ثمّ يتّجه غرباً لينتهي عند بيتييونت وديوسكوريادس؛ فمناطق كولهيدا هذه تجاور الساحل المذكور. ويأتي بعد ديوسكوريادس باقي ساحل كولهيدا وساحل ترابيزونت الذي يجاوره بعد منعطف كبير؛ ثمّ يتواصل بعد ذلك على خطّ مستقيم تقريباً، ليشكّل من ثمّ الجهة اليمنى للبونتس، التي تتّجه شمالاً. وساحل الآخيين وباقي الأقوام كلّه، وصولاً إلى ديوسكوريادس والمناطق الواقعة على خطّ مباشر إلى الجنوب منها في عمق البلاد، كلّها تقع على سفوح القفقاس.

**15**- ويعلو هذا الجبل فوق البحرين معاً، بحر البونتس وبحر قزوين، حتّى يبدو كأنه سور يحيط بالبرزخ الذي يفصل بينهما. ومن جهة الجنوب يفصل الجبل ألبانيا

وإيبيريا، ومـن الشـمال، السـهول السـارماثية. والجبـل مكسـوّ بشـتّى أنـواع الشـجر، خاصة الشجر الصالح لبناء السفن. وبحسب إيراتوسفين أنّ السكّان المحلّيين يدعون القفقاس قزوين، ربّما نسبة إلى [قبيلة] القزوينيين. وتبرز بعض ذيول هذا الجبل نحو الجنوب؛ فهي تطوّق وسط إيبيريا، وتلامس جبال أرمينيا والجبال التي تسمّى الجبال الموسخية، كما تلامس أيضاً سكيدس وباريادرس. وتعدّ هذه كلّها أجزاء من طوروس التي تشكّل الجانب الجنوبي منها أرمينيا؛ وتبدو هذه الجبال كأنها مقتطعة من طوروس في الشمال وتبرز حتّى القفقاس وأجزاء من الساحل الإيفكسيني، من كولهيدا حتّى ثيميسكيرا.

**16**- وبما أن ديوسكوريادس تقع في هذا الخليج، وتشغل أقصى نقطة شرقية في البحر كله، فإنها تعدّ «وهدة» البونتس الإيفيكسيني و[الإبحار إليها] هو الأبعد. لأنّه هكذا ينبغي أن نفهم بيت الشعر المعروف

**إلى فاسيس، على متون السفن، حيث أقصى طريق،**

*(تراجيديا مجهولة المؤلّف، مقطع 559 . ناؤوك)*

وليس كما لو أن مؤلّف اليامبا عنى النهر بقوله هذا، بل لأنه عنى المدينة التي تحمل اسم النهر عينه، والتي تقع على النهر؛ وعلى أغلب الظنّ، إنه دعا كولهيدا كلّها باسم جزء من أجزائها، لأنه من النهر والمدينة إلى «الوهدة» تبقى طريق على خطّ مباشر لا تقلّ مسافتها عن 600 مرحلة. وديوسكوريادس هذه، تعدّ أوّل البرزخ القائم بين بحر قزوين وبحر البونتس، والمركز التجاري المشترك للأقوام التي تسكن إلى الأعلى والأقوام المجاورة. وفي الأحوال كلّها فإن هذه المدينة تجمع 70 من الشعوب المختلفة (وبحسب آخرين لا يلقون بالاً لواقع الأشياء، أن المدينة تجمع 300 شعب). ويتحدّث كلّ من هؤلاء لغته التي تختلف عن لغات الآخرين، لأنّ كلّ شعب يعيش منعزلاً عن الآخرين، بسبب غطرسته وانطوائيته. وأكثر هؤلاء سارماثيون، لكنّ كلّهم قفقاسيّ. وهذا كلّ ما لديّ عن ديوسكوريادس.

**17**- أمّا ما تبقّى من كولهيدا فإن الشطر الأكبر منها يقع على البحر. وعبر كولهيدا يجري فاسيس، وهو نهر كبير ينبع من أرمينيا، وترفده مياه غلاوك ونهر هيبس اللذان ينبعان من الجبال المجاورة. وفاسيس صالح للملاحة حتّى سارابانا، وهي قلعة تتسع لسكنى سكّان مدينة كاملة. ومن هنا برّاً على طريق مطروقة إلى كير

مسير أربعة أيام. وتقوم على نهر فاسيس مدينة تحمل الاسم نفسه، وتعدّ هذه المدينة المركز التجاري للكولخيين، ويطوّقها النهر من جهة وبحيرة من جهة، والبحر من جهة ثالثة. ويستغرق الإبحار من هنا إلى أميس وسينوبس يومين أو ثلاثة، لأنّ أرض السواحل البحرية موحلة وفي مصبّات الأنهار مستنقعية. ولا تشتهر هذه البلاد بغلالها فقط (ما عدا عسلها لأنّ في طعمه مراراً ظاهراً)، إنما بكلّ ما هو ضروري لبناء السفن أيضاً. فهي تنتج كثيراً من الأخشاب وتنقلها عبر الأنهار. ويصنع سكّانها كثيراً من المنسوجات الكتانية، والقنّب، ويستخرجون القطران والشمع. وتحظى منسوجاتهم الكتانية التي يصنعونها محلّياً، بشهرة واسعة. فقد كانوا يصدّرونها إلى البلدان الأخرى، ورغبة من بعضهم في إقامة صلة نسب بين الكولخيين والمصريين، يرون في هذه الحقيقة دليلاً على صحّة وجهة نظرهم. وعلى الأنهار المذكورة يقع في بلاد الموسخيين معبد ليوكوفيا الذي بناه فريكس، وموحى فريكس الذي يحرّم تقديم الخرفان ذبائح فيه. وفي زمن ما نهب فارناك هذا الموحى الغني، ثمّ كرر الفعلة بعده ميتريدات البرغامي، فبحسب يوريبيدس أنه بعد نهب البلاد

**يتألّم الإله، ولا تتعطّش الأجيال**

(*التلاثيات*، 26)

**18**- وتظهر الأساطير التي تتحدّث لو بطريقة مبهمة عن حملة ياسون الذي وصل إلى ميديا، وحملة فريكس المبكرة التي سبقت حملة ياسون، تظهر مدى الشهرة التي كانت تحظى بها هذه البلاد. وامتلك الملوك الورثة الذين جاؤوا بعد ذلك، البلاد المقسّمة إلى «سكيبتوخات»[16]، لكنّ رخاءهم كان محدوداً. وعندما زادت سلطة ميتريدات إيفباتور قوّة، خضعت البلاد لسيطرته. وكان الملك يرسل إلى هناك دائماً أحد «أصدقائه» [المقرّبين] «عاملاً» أو «حاكماً»[17]. وكان مواثيرنوس أحد هؤلاء «العمال»، وهو عمّ والدتي. ومن هذه البلاد كان الملك يتلقّى أكبر العون لتزويد أسطوله. وبعد انهيار قوّة ميتريدات، تفككت دولته وانقسمت بين كثير من الحكّام. وفي نهاية المطاف امتلك بوليمون كولهيدا، وبعد وفاة هذا الأخير حكمت البلاد زوجته بيثودوريدس التي كانت ملكة الكولهيين ومدينتي ترابيزونت وفارناكيا والمناطق البربرية الواقعة إلى الأعلى التي سنتحدّث عنها فيما بعد[18]. وتنقسم بلاد الموسخيين التي يقع فيها المعبد[19]، إلى ثلاثة أقسام: جزء تحت سلطة الكولهيين، وجزء تحت

سلطة الإيبيديين، وجزء يملكه الأرمن. وثمّة في إيبيديا أيضاً مدينة صغيرة (مدينة فريكس)، هي إيديسّا المعاصرة، وهي موقع حصين على حدود كولهيدا. وعلى مقربة من ديوسكوريادس يجري نهر هاريس.

**19**-ويندرج في عداد الأقوام التي تجتمع في ديوسكوريادس، الثتيروفاغيون[20]، الذين حملوا هذا الاسم بسبب قذارة أجسادهم. وعلى مقربة يعيش السوانيون الذين لا يقلّون عنهم قذارة، لكنّهم أكثر منهم جبروتاً؛ وربّما كانوا أكثر من الآخرين كلّهم قوة وامتلاكاً للروح القتالية. وعلى أيّ حال فإنهم يسودون على كلّ الأقوام المحيطة بهم، إذ يشغلون قمم القفقاس التي تعلو فوق ديوسكوريادس. ولدى السوانيين ملك ومجلس من 300 عضو، ويقال إنهم يستطيعون تجنيد 200.000 مقاتل. فواقع الحال، هو أن الكتلة الشعبية كلّها عندهم مؤهلة للقتال، مع أنها ليست قوّة منظمة. ويروى أن الأنهار الجبلية في بلادهم تحمل الذهب، فيلتقطه البرابرة بالغرابيل والجلود الشعثاء[21]. ومن هنا جاءت أسطورة الجزّة الذهبية، كما يقولون. ويدعو بعضهم السوانيين إيبيريين أيضاً - على حدّ سواء مع الغربيين - نسبة إلى الرواسب الذهبية الموجودة في البلدين. ويشبع السوانيون رؤوس سهامهم بسمّ ذي فاعلية مذهلة، إذ يعاني من رائحته حتّى الذين لم تجرحهم السهام المشبعة به. أمّا الأقوام الأخرى التي تعيش قرب القفقاس، فإنها تشغل أراض شحيحة لا أهمية لها؛ وعلى الضدّ منها القبائل الإيبيرية والألبانية التي تشغل الشطر الأكبر من البرزخ المذكور، إذ يمكن أن تدعى قبائل قفقاسية أيضاً. فهي تملك أراض خصبة ويمكنها أن تطوّر اقتصاداً جيّداً.

## الفصل الثالث

**1**- إن الشطر الأعظم من إيبيريا يعجّ فعلاً بكثرة من المدن، والبلدات، والقرى، وتنتشر في هذه المراكز السكّانية، الأسقف القرميدية، وساحات الأسواق وسوى ذلك من المنشآت المبنية وفق قواعد الهندسة المعمارية.

**2**- وتحيط جبال القفقاس بجزء من هذه البلاد. وكما قلت سابقاً[1]، إن ذيول هذه الجبال تبرز نحو الجنوب؛ وهي أراض ذهبية تحيط بايبيريا كلّها وتصل لتجاور أرمينيا وكولهيدا. ويقع في وسط إيبيريا سهل تجري فيه أنهار، أكبرها نهر كير. وينبع هذا من أرمينيا، وفي اللحظة التي يدخل فيها السهل المذكور، يستقبل نهر آراغ (الذي يجري من القفقاس)، وسواه من الأنهار الأخرى، ثمّ يعبر وادياً ضيقاً ليدخل بعد

ذلـك ألبانيـا؛ وبـين هـذا الـوادي وأرمينيـا ينـدفع النهـر هـادراً عـبر سـهول غنيـة جـدّاً بالمراعي، ويستقبل أنهاراً أخرى، منها نهر ألازونيوس، ونهر ساندوبان، ونهر ريتاك، ونهر خان (وكلّها صالح للملاحة)، ليصبّ في آخر المطاف في بحر قزوين. وكان هذا النهر يدعى من قبل نهر كور.

**3-** ويقطن سهل إيبيريا أناس يميلون إلى العمل الزراعي وينزعون نحو السلام. ويرتدي هؤلاء أزياء كالأزياء الأرمينية والميدية؛ أمّا المناطق الجبلية فيقطنها أناس أجلاف ومقاتلون يعيشون وفق نمط العيش السكيثي والسارماتي، وهم جيران هؤلاء وتربطهم بهم أواصر القرابة؛ ولكنّهم يعملون بالزراعة أيضاً. وفي حال نشوء حالة من الاضطراب والقلق يستطيع هؤلاء أن يجنّدوا عشرات آلاف المقاتلين من بين صفوفهم كما من صفوف السكيث والسارمات.

**4-** وثمّة أربعة معابر تقود إلى هذه البلاد. أحدها عبر الحصن الكولهي سارابانا والثغر الواقع على مقربة منه. وعبر هذا الثغر ينحدر فاسيس هادراً بعنف (بسبب كثرة التواءات هذا النهر أقاموا عليه 20 جسراً) إلى كولهيدا، وعندما تهطل الأمطار بغزارة تغطي المكان أخاديد كثيرة تحدثها التيارات المائية الجبلية. وتقع منابع فاسيس في الجبال الواقعة فوق إيبيريا، حيث يمتلئ هناك بمياه كثير من الينابيع، ثمّ يستقبل في السهول أنهاراً أخرى، منها نهر غلاوك ونهر هيبس. وإذ يمتلئ بمياه هذه الروافد كلّها ويغدو صالحاً للملاحة، يمضي هذا النهر ليصبّ في البونتس؛ وتقع عند مصبّه مدينة تحمل اسمه، وعلى مقربة من هذه الأخيرة تقع بحيرة. هذا هو وصفي للمعبر من كولهيدا إلى إيبيريا، وهو المعبر الذي تحيط به الحصون، والصخور، والأنهار الهادرة.

**5-** وتنطلق من منطقة الرّحل الشماليين طريق صاعدة وعرة يستغرق اجتيازها ثلاثة أيام، ثمّ يبدأ بعد ذلك واد نهري ضيّق يمتدّ على طول آراغ، وتعبر الوادي طريق مستوية يستغرق اجتيازها أربعة أيام لشخص من دون حمولة. ويحرس القطاع الأخير من الطريق حصن منيع. ويمضي العبور من ألبانيا في أوّل الأمر عبر منطقة صخرية تخترقها طريق صغيرة، ثمّ عبر منطقة فيضانات يشكلها نهر ألازونيوس الذي ينحدر من القفقاس. أمّا المعابر التي تنطلق من أرمينيا، فهي ثغر كير وآراغ. فإلى الأعلى من نقطة التقاء هذين النهرين، تقع على الصخور مدينتان محصّنتان تبعد واحدتهما عن الأخرى قرابة 16 مرحلة: مدينة هارموزيكا على نهر كير، ومدينة سيسامورا على

النهـر الآخـر. وقـد اسـتخدم هـذه المعـابر في أوّل الأمـر، بومبيـوس الـذي كـان زاحفـاً بجيوشه من أرمينيا، ثمّ استخدمها كانيدس.

**6-** وتقطن هذه البلاد أربعة أصناف من الناس. أحدهما يعدّ الصنف الرئيس، ومنه يختارون ملوكهم، من الأكبر سنّاً والأكثر عراقة؛ والشخصية التالية من حيث الأهمية، هو القاضي والقائد العسكري؛ والصنف الثاني، هو الكهنة، الذين يديرون إلى جانب شؤون أخرى، الدعاوى والخصومات مع الجيران. ويتألّف الصنف الثالث من المقاتلين والفلاحين. وأخيراً الصنف الرابع الذي يتألّف من باقي فئات الشعب العادية؛ إنهم عبيد الملك الذين ينهضون بكلّ أعمال تحصيل موارد العيش. والملكية عند هؤلاء مشتركة، ويدير شؤون كلّ ملكية ويحافظ عليها الرجل الأكبر سنّاً. هؤلاء هم الإيبيريون، وهذه هي بلادهم.

## الفصل الرابع

**1-** يميل الألبانيون أكثر إلى تربية الحيوانات والرعي، وهم أكثر قرباً من الرحّل؛ لكنّهم ليسوا قساة، ولذلك فعدوانيتهم غير زائدة. وهم يعيشون بين الإيبيريين وبحر قزوين؛ ومن الشرق تجاور بلادهم البحر، وتحاذي الإيبيريين من الغرب. أمّا فيما يخصّ الجهتين الأخريين، فالشمالية منهما تحيط بها جبال القفقاس (لأنّ هذه الجبال تعلو فوق السهول، وتُدعى، خاصة شطرها المجاور للبحر، بالجبال الكيرافنية)، وتشكل أرمينيا الجهة الأخيرة التي تجاورها؛ وأرمينيا جزئياً، عبارة عن سهل، وجزؤها الآخر بلاد جبلية، مثل كامبيسينا، حيث يتجاور الأرمن مع الإيبيريين والألبانيين في الوقت نفسه.

**2-** ويزيد نهر كير الذي يجري عبر ألبانيا، ومعه الأنهار الأخرى التي ترفده بمياهها، من خصوبة الأرض، لكنّه بالمقابل يفصلها عن البحر. فما يحمله النهر يصل إلى هنا بكميات كبيرة تملأ المعبر، فتتّصل الجزر الصغيرة المجاورة مع البرّ مشكّلة هنا وهناك مخاضات بارزة يصعب تفاديها. ويتزايد تغيّر المخاضات المتواصل هذا بسبب تلاطم الأمواج وقت الجزر. ويقال، إن مصبّات الأنهار تنقسم هنا إلى اثني عشر مخرجاً؛ بعضها ناء، وما تبقّى منها يطاله لطم الأمواج وليس فيه مراس. ومع أن الساحل يشاطئ البحر والأنهار مسافة تزيد على 60 مرحلة، إلاّ أن كلّ جزء منه عصيّ ولا يمكن بلوغه؛ فالترسبات النهرية تمتدّ حتّى 500 مرحلة وتجعل الشاطئ رملياً. وعلى مقربة

يصبّ أراكس الذي ينحدر صاخباً من أرمينيا. ولكنّ الترسبات التي يحملها أراكس إلى مصبّه، جاعلاً مجراه صالحاً للملاحة، يعوّضها كير بالكمّ نفسه.

**3**- وعلى أيّ حال ربّما لا يكون للبحر ضرورة عند مثل هؤلاء الناس البتّة. بل حتّى الأرض لا يستخدمها هؤلاء حسب جودتها، لأنّ هذه الأرض لا تنتج شتّى أنواع الثمار فقط، إنما مختلف النباتات أيضاً؛ وتنمو فيها فعلاً مختلف النباتات الدائمة الخضرة. ولا تحتاج أرضهم في غضون ذلك أيّ شكل من أشكال العناية بها، إنما خيراتها كلّها

**من غير حراثة وبذار تنمو**

(*الأوذيسا* IX، 109)

وهذا ما يخبّر به أولئك الذين قاموا برحلات إلى هذه البلاد[1]، إذ رووا عمّا يمكن أن يدعى نمط عيشهم «السيكلوبي»[2]. فعلى حدّ قول هؤلاء الكتّاب، إن الأرض التي زرعت مرّة هنا، أعطت في أماكن كثيرة محصولين أو ثلاثة محاصيل، بل قد جاء المحصول الأوّل بقدر خمسين ضعفاً؛ ولم يكن الحقل في غضون ذلك بوراً، كما أنه لم يحرث بمحراث حديدي، بل بمحراث خشبي. ويروى هذا السهل بمياه أنهاره ومياه المصادر المائية الأخرى، أفضل مما تروى سهول بابل ومصر، فهو يحافظ دوماً على اخضراره وتكثر فيه المراعي. وعلاوة على هذا فإن المناخ هنا ملائم أكثر مما هي عليه في بابل ومصر.

ولا تُعزق عرائش العنب هنا حتّى النهاية أبداً، بل يشذّبونها مرّة كلّ خمس سنوات. والعرائش المزروعة حديثاً تعطي محصولها في العام الثاني، وهي إذ يكتمل نموّها تعطي من العناقيد ما لا يتسنّى قطافه كاملاً، فيبقى قسم كبير من المحصول على غصونه. وعلى النحو نفسه تتكاثر قطعان هذه البلاد أيضاً، المنزلية منها والبرية.

**4**- ويتميّز الناس بجمال المظهر وطول القامة، وهم في الوقت عينه بسطاء يحملون قلوباً طيّبة، لكنّهم ليسوا سطحيين يهتمّون بتوافه الأمور فقط. والمسكوكات النقدية ليست متداولة عندهم عادة، ولا يعرفون عدداً أكبر من المئة، وتعتمد تجارتهم على التبادل العيني. أمّا موقفهم من الشؤون الحياتية الأخرى فيتسم باللامبالاة. ولا يعرفون شيئاً عن المقاييس والمعايير والموازين الدقيقة. كما لا يبدون أيّ اهتمام بمسائل الحرب، وبناء الدولة، والعمل الزراعي. ولكنّهم يقاتلون مشاة وفرساناً بأسلحة خفيفة، كما يفعل الأرمن[3].

**5-** ويجنّد هؤلاء أعداداً من المقاتلين أكبر ممّا يجنّده الإيبيريون. فهم على وجه التحديد الذين يضعون تحت السلاح 60.000 من الجنود المشاة، و22.000 من الفرسان(4)، وبهذا العدد الكبير من المقاتلين واجهوا بومبييوس. ويقدّم الرحّل العون للألبانيين كما للإيبيريين في الحرب ضدّ الغرباء، للأسباب عينها. ولكنّهم يشنّون ضدّهم الغزوات في أحيان كثيرة، فيعيقون بذلك أعمالهم الزراعية. ويتألّف سلاح الألبانيين من المزاريق والأقواس والسهام؛ وهم يرتدون الدروع، ويحملون تروساً أكثر تطاولاً، ويعتمرون خوذاً من جلود الوحوش، مثلهم في هذا مثل الإيبيريين. وإلى منطقة الألبانيين تتبع منطقة قزوينيا التي حملت اسم قبيلة اندثرت بعد أن أعطت اسمها لبحر أيضاً. ويمتدّ المعبر من إيبيريا إلى ألبانيا عبر منطقة صخرية قاحلة تدعى كامبيسينا، ثمّ إلى نهر ألوزونيوس. ويميل الألبانيون، وكذلك كلابهم للصيد، ولكن ليس بدافع مهاراتهم، بل بدافع شغفهم به.

**6-** ولملوكهم أيضاً شهرة واسعة. والحقيقة أن لهم الآن ملكاً واحداً يدير شؤون القبائل كلّها، بينما في الماضي كان لكلّ قبيلة تتحدّث لغة مختلفة، ملكها الخاص بها، وعندهم 26 لغة، ولذلك ليس التواصل فيما بينهم بالأمر اليسير. وتوجد في هذه البلاد عدة أنواع من الزواحف السامّة، إضافة إلى العقارب والعناكب السامّة(5). وترغم لدغة بعضها الملدوغ على أن يموت وهو يضحك، بينما ترغمه لدغة بعضها الآخر على أن يموت وهو يبكي فراق أهله وأقاربه.

**7-** ويعبدون من الآلهة هيليوس، وزيوس، وسيلينا، خاصة سيلينا التي يقع معبدها على مقربة من إيبيريا. وينهض بمهمات الكاهن عندهم الشخص الذي يحظى بأكبر احترام بعد الملك؛ ويقف هذا على رأس منطقة مقدّسة ذات كثافة سكّانية عالية، ويتصرّف بعبيد المعبد المسكون أكثرهم بإله، وينطق بالنبوءات. ومن منهم يغدو مسكوناً بالإله، يجول بالغابات وحيداً، فيأمر الكاهن بالقبض عليه وتكبيله بسلسلة مقدّسة، ثمّ يُعال بسخاء طول العام؛ وبعد ذلك يُدهن المعدّ ذبيحة للإلهة بالطيب، وينحر مع الذبائح الأخرى. وتقدّم الذبيحة على النحو الآتي: يخرج من الحشد شخص ما ضليع في مثل هذا العمل، وهو يحمل بيده رمحاً مقدّساً ينجزون به وفق التقليد تقديم الذبيحة البشرية، فيطعن الضحية في القلب عبر الجنب. وعندما يسقط الضحية على الأرض، يتلقّون علامات معروفة تظهر بحسب طريقة سقوطه، ويعلنون

ذلك على الجميع. ثمّ يحملون الجثمان إلى مكان معيّن يطؤه فيه جميعهم بالأقدام، مؤدّين بذلك طقس التطهر.

**8-** ويجلّ الألبانيون الشيخوخة إجلالاً عظيماً، ولا ينسحب هذا على الوالدين فقط، بل على الناس الآخرين كلّهم. ولكنّ الاهتمام بالأموات، أو حتّى تذكّرهم، عدّ شأناً قبيحاً عندهم. وكانوا يدفنون مع المتوفّى مقتنياته كلّها، ولذلك هم فقراء محرومون من تركات والديهم. وهذه هي معلوماتي عن الألبانيين. وبحسب الأسطورة أن ياسون أثناء رحلته إلى الكولخيين مع التسالي أرمين، توغّل حتّى وصل بحر قزوين، وزار إيبيريا، وألبانيا، والشطر الأكبر من أرمينيا وميديا، وهذا ما يؤكّده وجود معابده هناك[6]، إضافة إلى آثار أخرى. وبحسب الحكايات، إن أرمين ينحدر من أرمينوس، وهي واحدة من المدن الواقعة على مقربة من بحيرة بيبييدا، بين ثيرا ولاريسا. وقد شغل مرافقو أرمين منطقة أكيليسينا وسيبيريتيدا وصولاً إلى كالاهانا وأديابينا، بل وترك من بعده بلاداً دعيت باسمه: أرمينيا.

## الفصل الخامس

**1-** يقال إن الأمازونيس يقطنّ في الجبال التي تعلو فوق ألبانيا. ويروي ثيوفانوس الذي رافق بومبييوس في حملته وزار بلاد الألبانيين، إن قبائل الليفيين والهيليين السكيثية تعيش بين الأمازونيس والألبانيين وإن نهر ميرماداليدا يجري في هذه البلاد في الوسط بين هذه القبائل والأمازونيس. ولكنّ كتّاباً آخرين يعرفون هذه الأماكن معرفة جيّدة (منهم ميترودور السكيبسيسي[1]، وهيبسيقراط)، يزعمون أنّ الأمازونيس يقطنّ في جوار الغارغاريين في مرتفعات تلك الأجزاء من جبال القفقاس التي تدعى الجبال الكيرافنية. وتستغلّ الأمازونيس الباقي من الوقت كلّه[2] للاهتمام بأمورهن الخاصة، فينجزون أعمالاً معيّنة، كحراثة الأرض، وأعمال البستنة، والعناية بالقطعان، خاصة الخيل؛ ويعمل الأكثر قوّة من الأمازونيس بالصيد على صهوات الجياد، كما يمارسن التمارين القتالية. وفي سنّ الطفولة يحرقن الثدي الأيمن لكلّ منهن، لكي يتسنّى لهنّ استخدام اليد اليمنى من غير عائق في أيّ عمل كان، خاصة لدى رمي الرمح. كما يستخدمن القوس والسهام، والفأس القتالية وترساً خفيفاً؛ ويصنعن من جلود الوحوش خوذاً، وأردية، وأحزمة. ولديهنّ في الربيع شهران لهما خصوصية خاصة، إذ يصعدن إلى الجبل المجاور الذي يفصل بين قبيلتهن والغارغاريين.

ووفق واحدة من العادات القديمة العهد، أن الغارغارين يصعدون إلى هذا الجبل أيضاً، لكي يقدّموا الذبائح مع نسائهم ثمّ يتناسلون معهن لإنجاب الأولاد؛ وتجري المعاشرة أثناء ذلك في الظلام إذ يعاشر كلّ رجل المرأة التي يصادف؛ وعندما يحصل الحمل يطلق الغارغاريون نساءهم ليرجعن إلى الديار. وعندما تضع النساء حملهن، تُبقي الأمازونيس المولودات الإناث لديهنّ، ويدفعن بالمواليد الذكور إلى الغارغاريين لتربيتهم، فيأخذ كلّ غارغاريّ الوليد الذي يُعطى له، ويعدّه ابناً له.

**2**- ويجري نهر ميرمودا[3] الذي ينحدر صاخباً من الجبال، عبر بلاد الأمازونيس، وسيراكينا، ثمّ يعبر كلّ البادية الممتدّة بينهما ليصبّ في ميوتيدا. ويقولون، إن الغارغاريين صعدوا مع الأمازونيس إلى هذه الأماكن من ثميسكيرا؛ لكنّهم ثاروا بعد ذلك وبدؤوا حرباً ضدّ الأمازونيس شاركهم فيها بعض من التراقيين والإيبيين (الذين وصلوا في ترحالهم إلى هذه الأماكن)؛ وبعد أن أوقفوا الحرب، عقدوا معهن اتفاقاً تضمّن الشروط المذكورة: يقتصر التواصل بين الفريقين على إنجاب الأطفال، بينما يعيش كلّ منهما مستقلاً عن الآخر.

**3**- لكنّ شيئاً ما غريباً وقع لحكاية الأمازونيس. ففي الحكايات الأخرى كلّها يوجد حدّ فاصل بين العناصر الميثولوجية والعناصر التاريخية؛ فالعاديات، والاختلاق، والعجيب تدعى كلّها أساطير، أمّا التاريخ، سواء كان قديماً أم حديثاً، فهو يستحضر الحقيقة، وليس للعجيب مكان فيه إلاّ فيما ندر. وفيما يتعلّق بالأمازونيس، فقد تناقلوا عنهن دائماً، سواء فيما مضى أو الآن، الحكايات عينها، وهي كلّها حكايات عجيبية ومستحيلة. فمن يصدّق مثلاً، أنّ قوات ما أو قبيلة ما يمكن أن تتألّف في أي زمن كان، من النساء فقط؟ ولم يكفهم أن تتألّف من النساء فقط، بل كانت تشنّ غزوات على أراضي الغير، وتحقّق الانتصارات على القبائل المجاورة، حتّى أنها وصلت أتيكا نفسها؟ وواقع الأمر أن التسليم بهذا يماثل قولنا: إن رجال ذلك الزمن كانوا نساء، ونساءه رجالاً. والأدهى من هذا، إن حكايات الأمازونيس لا تزال شائعة حتّى يومنا هذا، وإن نزوعنا لأخذ مثل هذه الحكايات على محمل الجدّ، هو أقوى من ميلنا إلى صحّة الروايات المعاصرة، وهذا ما يجعل وجه الغرابة المذكور أعظم.

**4**- ويتحدّثون عن تأسيس الأمازونيس عدد من المدن التي جاءت أسماؤها من الأمازونيس، فيذكرون في هذا السياق إفسس، وسميرنا، وكيما، وميرينا، كما

يتحدّثون أيضاً عن قبورهن وسوى ذلك من المعالم. ويدعو كلهم ثميسكيرا والسهول الواقعة قرب ثيرمودونت والجبال التي تعلو فوقها، بلاد الأمازونيس، إذ يزعمون أنهنّ طردن من هنا. وفيما يخصّ مكان تواجد الأمازونيس اليوم، فإن بعضهم فقط ينقل معلومات لا أساس لها وغير معقولة. ومن مثل هذه الروايات، قصة ملكة الأمازونيس فاليستريا التي يزعمون أن الإسكندر عاشرها في هيركانيا لكي ينجب منها أبناء. بيد أن هذه الرواية لا يأخذها كلّهم على محمل الجدّ؛ فليس بين المصادر الكثيرة التي تهوى الحقيقة أوّلاً، أيّ مصدر يأتي على ذكر مثل الرواية، كما لا يتطرّق إليها بأيّ شكل كان أيّ من أولئك الذين يستحقون أكبر الثقة، وحتى الذين ساقوا رواية هذه الواقعة، ساقوها بأشكال مختلفة. فبحسب كليتارخ، أن فاليستريا جاءت إلى الإسكندر من البوابات القزوينية وثيرمودونت، ويجدر أن نذكر هنا أن المسافة بين منطقة قزوين وثيرمودونت أكثر من 600 مرحلة.

**5**- وحتى الروايات الشائعة التي أُنشئت لتبجيل الإسكندر، لا تحظى بقبول عام لأنّ ما انشغل به مؤلّفوها هو التملّق وليس الحقيقة. فقد نقل هؤلاء، على سبيل المثال، اسم «القفقاس» من الجبال التي تعلو فوق كولهيدا والبونتس الإيفيكسيني إلى الجبال الهندية والبحر الشرقي الواقع على مقربة منها. فالإغريق لم يدعوا سوى هذه الجبال الواقعة على بعد أكثر من 30.000 مرحلة عن الهند، بجبال القفقاس، وإلى هنا نقلوا مكان أحداث أسطورة بروميثيوس وأغلاله. وحقيقة الأمر أن هذه الجبال كانت عندئذٍ الجبال الأبعد بين الجبال التي كانت معروفة لناس ذلك الزمن. أمّا حملتا ديونيسسيوس وهرقل فإنهما على الضدّ من هذا تشيران إلى نشوء الأسطورة في زمن أحدث من هذا التاريخ. والحقيقة أن مجد الإسكندر كان أعظم بكثير لو أخضع آسيا حتّى الجبال الهندية، مما لو بلغ أقصى نقطة على البونتس الإيفيكسيني والقفقاس، ولكنّ المجد الذي كانت تحظى به هذه الجبال والاعتقاد الذي كان سائداً عن أن ياسون ورفاقه قد قاموا بأبعد حملة بين الحملات كلّها، فوصلوا إلى المناطق المتاخمة للقفقاس، وكذلك أسطورة بروميثيوس الذي قيّد بالأغلال على أطراف الأرض فوق القفقاس، هذا كلّه كان السبب الذي جعل الكتّاب يتملّقون الملك، فنقلوا اسم القفقاس إلى الهند.

**6**- إن أعلى أقسام جبال القفقاس، هي أقصى أقسامها الجنوبية الواقعة عند ألبانيا، وإيبيريا، وبلاد الكولهيين والجينيوخيين. وتقطن هناك القبائل التي تذهب،

كما أشرت آنفاً[4]، إلى ديوسكورياديس، والغرض الرئيس لذهابها إلى هناك، هو الحصول على الملح. ومن هذه القبائل من يشغل قمم الجبال، ومنهم من يشغل الوديان، التي تكسوها الغابات، ويقتات هؤلاء أساساً بلحوم الحيوانات البّرية، والغلال البرية، والحليب ومشتقاته. ولكنّ بلوغ قمم الجبال أمر متعذّر في الشتاء، ولذلك يصعد إليها الناس صيفاً بعد أن يربطوا على أرجلهم، بسبب الثلوج والجليد، قطعاً من جلد الثور العريضة الطرية المدعوكة التي تشبه الطبل، ويغرزون فيها أشواكاً. وكانوا يضطرّون إلى النزول من هناك مع أحمالهم مستلقين على الجلود متزلّجين على الجليد، كما يفعلون في ميديا الأتروباتية، وعلى جبل ماسي في أرمينيا. ولكنّهم يضعون هناك تحت نعال جزمهم عجلات خشبية صغيرة مغروزة بالشوك. تلكم هي قمم القفقاس.

**7**- وإذ نهبط إلى السفوح، نصل منطقة تقع إلى الشمال، مناخها أكثر لطافة. فهذه المنطقة تتاخم سهول السيراكيين. ويعيش هنا أيضاً بعض التروغلوديتيين، الذين أرغمهم الصقيع على العيش في وجار الوحوش، بيد أن عندهم كثيراً من خبز الشعير. ويلي التروغلوديتيين الخاميكيتيون[5]، وما يدعون بالبوليفاغيين[6]، ومستوطنات الإيساديكين الذين لا يزال بإمكانهم ممارسة العمل الزراعي، لأنهم لا يعيشون في أقصى الشمال.

**8**- ويأتي بعد ذلك الرحّل الذين يعيشون بين ميوتيدا وبحر قزوين، وهؤلاء هم على وجه التحديد النابيانيون، والبانكسانيون، وكذلك قبائل السيراكيين، والآورسيين. ومن الواضح أن هؤلاء الآورسيين والسيراكيين هم مطاريد القبائل التي تقطن إلى الأعلى، أمّا الآورسيون فيسكنون إلى الشمال من السيراكيين. وكان أبياك ملك السراكيين يضع تحت السلاح 20.000 فارس (بينما كان فارناك يملك البوسبور)، أمّا سبارادين، ملك الآورسيين، فقد كان يجند حتّى 200.000؛ لكنّ الآورسيين العُلْويين كانوا يجنّدون أكثر من هذا، لأنهم كانوا يشغلون منطقة شاسعة أكثر، إذ امتلكوا الشطر الأعظم من ساحل بحر قزوين. ولذلك عملوا بتجارة القوافل، واستخدموا فيها الجمال، وقد كانوا يبادلون بالبضائع الهندية والبابلية، البضائع الأرمينية والميدية؛ وتبعاً لثرائهم كانوا يتزينون بحليّ ذهبية. ويعيش الآورسيون عموماً على مجرى تانايس، والسيراكيون على مجرى أخاردييوس الذي ينبع من جبال القفقاس ويصبّ في ميوتيدا.

# الفصل السادس

**1**- يبدأ الشطر الثاني[1] من آسيا عند بحر قزوين الذي ينتهي عنده شطرها الأوّل. ويدعى هذا البحر بالبحر الهركاني أيضاً. وينبغي عليّ أن أتحدّث عن هذا البحر والشعوب القاطنة حوله أوّلاً. فبحر قزوين عبارة عن خليج يمتدّ من المحيط[2] نحو الجنوب؛ والبحر متضيّق في أوّله بشكل ملحوظ، إلاّ أنه يتسع كلّما اتّجه نحو العمق، خاصة في المنطقة الأقصى منه، حيث يبلغ عرضه حوالي 5000 مرحلة. والمسافة من مدخله الذي يقع على حدود العالم غير المأهول، حتّى أقصى نقطة في البحر أكثر من هذا بقليل. فبحسب إيراتوسفين إن امتداد الطريق التي يعرفها الإغريق حول هذا البحر على طول شواطئ الألبانيين والكادوسيين، 5400 مرحلة، أمّا على طول شواطئ الأناريكيين، والمارديين، والهركانيين وصولاً إلى مصبّ نهر أوكس فإن هذه المسافة هي 4800 مرحلة، ومن هناك إلى ياكسارت 2400 مرحلة. وعلى وجه العموم ينبغي ألاّ تؤخذ المعطيات المنقولة عن هذا الشطر من آسيا، على وجه الدّقّة، خاصة عندما يجري الحديث عن المسافات.

**2**- وإذا دخلنا بحر قزوين، فعلى يمينه يقطن السكيثيون أو السارماثيون الذين يجاورون البلدان الأوروبية، وبين تانايس وهذا البحر أكثر السكّان من الرحل (وكنت قد أشرت إليهم)[3]. ويعيش على يساره السكيثيون الشرقيون، والنوماديون أيضاً، وتنبسط منطقة هؤلاء حتّى البحر الشرقي والهند. وكان المؤرّخون الإغريق القدماء قد دعوا الشعوب الشمالية كلّها باسم واحد، هو الشعوب السكيثية أو السلتوسكيثية. لكنّ المؤرّخين الأقدم من هؤلاء كانوا قد ميّزوا بين هذه الشعوب، إذ دعوا القبائل التي كانت تقطن فوق البونتس الإيفيكسيني، والإيستر، والبحر الأدرياتيكي، بالهيبربورياس، والسافروماتيين، والإريماسبيين. أمّا القبائل التي تقطن وراء بحر قزوين، فقد دعا هؤلاء المؤرّخون بعضها بالساكيين، وبعضها الآخر بالماساجيتيين، لكنّهم كانوا عاجزين عن نقل أيّ شيء محدّد عنها، مع أنهم وصفوا حرب قورش مع الماساجيتيين[3]. بيد أنّ أبحاث هؤلاء المؤرّخين لم تنقل أي شيء دقيق عن هذه القبيلة، أمّا التاريخ القديم للفرس، والميديين، والسوريين، فلم يحظ بالثقة، بسبب سذاجة المؤرّخين وولعهم بالأساطير.

**3**- فقد رأى هؤلاء المؤرّخون أنّ مؤلّفي الأساطير يحظون بالاحترام، لذلك عزموا

على أن تكون مؤلّفاتهم مقبولة، فكتبوا تحت اسم التاريخ ما لم يَروا، وما لم يسمعوا به أبداً (أو في أقل تقدير ما سمعوه من أشخاص غير عارفين)، واضعين نصب أعينهم هدفاً واحداً، هو تحقيق المتعة لقرّائهم. ويبدو من الأسهل أن نصدّق هسيود وهوميروس ورواياتهما عن الأبطال أو شعراء التراجيديا، من أن نصدّق كتيسيوس، وهيرودوت وهيلانّيكوس وأمثالهم من الكتّاب.

**4-** وليس من السهل أن نثق بمؤرّخي الإسكندر كلّهم، لأنهم لا يتعاملون مع الوقائع بالحذر المطلوب، بسبب اهتمامهم الزائد بتمجيد الإسكندر، ولأنّ حملته بلغت أقصى أطراف آسيا، بعيداً عنّا، وهو ما يشكّل صعوبة في دحض أخبارهم عن بعض الأماكن. ولكنّ سيطرة الرومان والبارثين تكشف لنا الآن عن هذه البلدان معطيات تفوق كثيراً تلك التي وصلت إلينا من قبل. فالكتّاب الذين يكتبون عن هذه الأصقاع والقبائل البعيدة عنّا، وحيث دارت الأحداث المعنية، يصوّرونها بدقّة أكبر مما فعل سابقوهم، لأنهم يتعمّقون أكثر في المادّة التي يدرسونها.

## الفصل السابع

**1-** وعلى الجانب الأيسر لدى الدخول إلى بحر قزوين، يقطن الرحّل الذين يدعوهم معاصرونا بالدائيين ويلقبونهم بالأبارنيين. ثمّ تقع في الفاصل بينهم صحراء، وتأتي بعد ذلك مباشرة هركانيا التي يمتدّ عندها بحر قزوين منتشراً على اتساع وصولاً إلى النقطة التي يتّصل عندها بالجبال الميدية والأرمينية. ولهذه الجبال شكل الهلال على منحدراتها التي إذ تنتهي عند البحر تشكّل أقصى زاوية في الخليج. وعلى منحدر الجبال هذا، من البحر حتّى القمم يقطن في مدى جغرافي غير كبير، فريق من الألبانيين والأرمن، لكنّ الهيليين، والكادوسيين، والأماردين، والفيتيين، والأنارياكيين يشغلون الشطر الأكبر من المنحدر. ويقولون إن بعض البارّاسيين يعيشون مع الأنارياكيين الذي يدعونهم الآن بارّاسيين؛ أمّا الإينيانيون فقد بنوا في منطقة الفيتيين مدينة محصّنة تدعى إينيانا؛ ويعرضون لزوارهم هنا أسلحة إغريقية، وأواني نحاسية، ومقابر، وتقع هنا أيضاً مدينة أنارياكا (حيث، كما يقولون، يعرضون للناظر موْحى للنيام)[1]؛ [ويعيش هنا] بعض القبائل الأخرى التي تمارس الغزو والنهب والحرب، أكثر من ممارستها العمل الزراعي، وهو ما يعلل بعنف هذه البلاد وقسوتها. ويشغل الكادوسيون الشطر الأكبر من الساحل المتاخم للمنطقة الجبلية، وهي منطقة يبلغ

امتدادها 5000 مرحلة تقريباً، كما يقول باتروكلس الذي يرى أن هذا البحر مساو لبحر البونتس. ولكنّ هذه المناطق قاحلة.

**2-** أمّا هركانيا فهي إقليم خصب وشاسع؛ وفي الشطر الأكبر من هذا السهل مدن مهمّة؛ ومنها تالابروكا، وساماريانا، وكارتا، والعاصمة تابا. ويقولون، إن هذه الأخيرة تقع أعلى من البحر وعلى بعد 1400 مرحلة عن البوابات القزوينية. ويشهد على رخاء هذه البلاد الآتي: دالية العنب الواحدة تعطي ميتريتاً من النبيذ، وشجرة التين الواحدة تعطي 60 ميديمناً من ثمار التين؛ ويخرج الخبز من الحب الذي يتساقط من التبن؛ والنحل يبني على الشجر، فيسيل العسل على ورقه. والحالة نفسها موجودة في إقليم ماتيانا في ميديا، وكذلك في ساكاسينا وأراكسينا في أرمينيا. بيد أن البلاد والبحر الذي يحمل اسمها لم يسترعيا الاهتمام الذي يستحقّان، لأنّ البحر غير صالح للملاحة وليس قيد الاستخدام. وثمّة في هذا البحر جزر غير مأهولة مع أنها مؤهّلة لأن تكون مأهولة، بل بحسب بعضهم إن فيها تربة تحتوي ذهباً. ويكمن سبب هذا الإهمال في أنّ الهركانيين كانوا خاضعين في أوّل الأمر للبرابرة، وتحديداً للميديين والفرس، ثمّ خضعوا بعد ذلك لمن هم أسوأ من هؤلاء، أي للبارثيين، زد إلى هذا أن البلاد المجاورة تعجّ كلّها بقطاع الطرق والرحّل، وهي بلاد صحراوية. وقد استولى المقدونيون على هذه البلاد لبعض الوقت فقط، لأنّ حروبهم لم تسمح لهم بأن يهتمّوا بهذه الأصقاع النائية. وبحسب أريستوبول إن في هركانيا كثيرة الغابات ينمو شجر البلوط، لكنّ شجر الصنوبر والشوح والتنّوب(2) لا وجود له هنا، مع أن هذا الشجر كثير في الهند. وتنتمي إلى هركانيا نيسييا أيضاً. لكنّ بعضهم يرى أن نيسييا إقليم مستقلّ(3).

**3-** ويعبر هركانيا نهر أوخ ونهر أوكس حتّى مصبيّهما في البحر. ويجري نهر أوخ عبر نيسييا أيضاً، لكنّ بعضهم يقول إن أوخ يصبّ في أوكس. بل يعلن أريستوبول أن نهر أوكس هو أكبر الأنهار التي رآها في آسيا، ما عدا أنهار الهند. وبحسب قوله، إن هذا النهر صالح للملاحة (لكنّه هو وإيراتوسفين أخذا هذه المعلومة عن باتروكليس)، ومياهه تنقل كثيراً من غلال الهند نزولاً إلى البحر الهركاني، ثمّ ينقلونها من هناك إلى ألبانيا، وعبر نهر كير والمناطق التي تليه لتصل إلى البونتس الإيفيكسيني. ولا يأتي القدماء على ذكر أوكس البتّة. لكنّ أبوللودوروس(4)، مؤلّف كتاب «تاريخ البارثيين» يذكر هذا النهر دائماً كنهر يجري على مقربة مباشرة من بلاد البارثيين.

**4**- لقد أُلحق بالقصص التي رويت عن هذا البحر كثير من الاختلاقات التي كان الغرض منها إرضاء غرور الإسكندر. ولأنّ نهر تانايس، هو بحسب إجماع العلماء، الحدّ الفاصل بين أوروبا وآسيا، ولأنّ الإقليم الواقع بين البحر وتانايس، والذي يشكل شطراً مهمّاً من آسيا، لم يكن خاضعاً لسلطة المقدونيين، لذلك قرروا اللجوء إلى الحيلة: أن يُظهروا (في أقلّ تقدير في إشاعة شعبية)، أن الإسكندر أخضع هذه البلاد أيضاً. ولهذا جمعوا بين بحيرة ميوتيدا التي يصبّ فيها تانايس مياهه، وبحر قزوين الذي دعوه في غضون ذلك بحيرة، وأكّدوا على أن الحوضين يرتبط بعضهما ببعض بمعبر جويّ، وأنّ كلاً منهما يشكّل جزءاً من الآخر. بل يسوق بوليكليتوس برهاناً على أن هذا البحر يعدّ بحيرة (لأنّ فيه ثعابين، ومياهه عذبة بعض الشيء). ويستنتج أن بحر قزوين ليس بحراً مستقلاً مختلفاً عن ميوتيدا، لأنّ تانايس يصبّ في ميوتيدا. ومن الجبال الهندية نفسها التي ينبع منها أوخ وأوكس وبعض الأنهار الأخرى، ينبع أيضاً ياكسارت الذي يصبّ في بحر قزون أيضاً مثله مثل الأنهار الأخرى؛ وهذا النهر هو النهر الشمالي الأقصى بين هذه الأنهار كلّها. وقد دعوا ياكسارت باسم تانايس وألحقوا بزعمهم هذا براهين على أن هذا النهر نهر تانايس الذي ذكره بوليكليتوس: في المنطقة التي تمتدّ وراء هذا النهر ينبت الشوح، ويستخدم السكيثيون الذين يعيشون هناك، سهاماً من خشب الشوح؛ وهذا يمثّل من وجهة نظرهم برهاناً على أنّ المنطقة التي تقع وراء النهر، هي منطقة أوروبية وليست آسيوية. والحقيقة أن الشوح لا ينمو في آسيا العليا والشرقية. لكنّ إيراتوسفين يؤكّد على الضدّ من هذا، إن الشوح ينمو في الهند أيضاً، وإن الإسكندر بنى أسطوله هناك من خشبه. ويحاول إيراتوسفين أن يدحض مزاعم كثيرة من هذا النمط. أمّا فيما يخصني فإن ما قلته في هذا الموضوع يكفي.

**5**- ومن الروايات المستحيلة التي رواها إيفدوكس وآخرون عن هركانيا، الرواية الآتية: تقع في البحر صخور كهفية ساحلية ما، وبينها وبين البحر يمتدّ شاطئ منخفض. وتنقضّ الأنهار من الجروف العالية الشديدة الانحدار بقوة تجعلها فور ملامستها الصخور تقذف مياهها إلى البحر، فتبقى الشواطئ جافة، ولذلك حتّى الجيوش يمكنها أن تعبر تحت غطاء الشلال النازل من الأعلى. وفي أحيان كثيرة يجتمع السكّان المحلّيون في هذا المكان إلى ولائم، وإقامة طقوس نحر الذبائح؛ ويجتمعون أحياناً في الكهوف، وأحياناً أخرى تحت شمس الشاطئ الواقع تحت الشلال

مباشرة؛ ومن الجانبين يظهر البحر والشاطئ الذي تكسوه الأعشاب والزهور بفضل الرطوبة المتوفرة لتربته.

## الفصل الثامن

**1-** وإذا ما اتّجهنا إلى الشرق من البحر الهركاني، فستكون على يميننا الجبال التي تمتدّ حتّى البحر الهندي. وقد أطلق الإغريق عليها اسم طوروس. وتبدأ هذه الجبال عند بامفيليا وكيليكيا وتمتدّ من الغرب إلى هذه الأماكن في سلسلة متصلة، وتتخذ في أثناء ذلك هذا الاسم أو ذاك. ويقطن إلى الشمال منها مباشرة، كما كنت قد أشرت[1]، الهيليون، والكادوسيون، والأمارديون، وبعض الهركانيين؛ ثمّ تليهم قبائل البارثيين، والمارغيانيين، والآريين؛ ثمّ تنبسط بعد ذلك صحراء يفصلها عن هركانيا نهر سارني (إذا سرت شرقاً باتجاه نهر أوخ). ويدعى الجبل الذي يمتدّ من أرمينيا إلى هذا المكان، أو قبله بقليل، جبل باراخوافرا. ومن البحر الهركاني إلى منطقة الآريين ما يقارب 6000 مرحلة. ثمّ تأتي بعد ذلك باكتريانا، وسوغديا، وأخيراً الرحّل السكيثيون. وقد أطلق المقدونيون على باقي الجبال كلّها ابتداء من الآريين، اسم جبال القفقاس؛ أمّا البرابرة فقد أطلقوا على القمم الشمالية[2] واحدة واحدة، أسماء خاصة: باروباميس، إيمودا، وإيماي، وأطلقت أسماء أخرى من هذا القبيل على أجزاء مستقلّة.

**2-** وعلى الجهة اليسرى، قبالة هذه القبائل استقر السكيثيون وقبائل رحلّ شغلت الجهة الشمالية كلّها. ويحمل أكثر السكيثيين بدءاً من بحر قزوين، اسم الدائيين. وتحمل القبائل التي تعيش إلى الشرق من هؤلاء الأخيرين، اسم الماساجيتيين والساكيين، أمّا القبائل الأخرى فتحمل اسماً مشتركاً واحداً: السكيثيين، بيد أن لكلّ قبيلة منها اسمها الخاص. وهؤلاء كلّهم رحّل. وقد اشتهر من هؤلاء الرحّل على وجه الخصوص، أولئك الذين انتزعوا باكتريانا من الإغريق، أي الآسيين، والباسيانيين، والتوخاريين والساكاراوليين الذين انتقلوا للسكنى على الضفّة الأخرى لنهر ياكسارت في جوار منطقة الساكيين والسوغديين التي كان يشغلها الساكيون. ويدعى بعض الدائيين أبارنانيين، وبعضهم الآخر كسانثيين، وبعضهم الثالث بيسورنيين. والبارنيون أقربهم إلى هركانيا والبحر الذي في جوارها؛ بينما ينتشر الآخرون حتّى المنطقة الواقعة قبالة آريا.

**3-** وتمتدّ بين الأبارنيين، وهركانيا، وبارثيا وصولاً إلى منطقة الآريين صحراء شاسعة قاحلة لا ماء فيها؛ وعبر مفازاتها الطويلة كان الأبارنيون يشنون غزواتهم على هركانيا، ونيسيا، وسهول البارثيين. وقد قبلت هذه القبائل [التي كانت تتعرّض للغزو] أن تؤدّي الإتاوة للأبارنيين؛ وتمثّلت الإتاوة في السماح لهم بغزو البلاد في وقت محدّد وأخذ الغنائم. ولكن عندما كان الأبارنيون ينتهكون هذا الاتفاق ويغدرون، كانت تشتعل الحرب بين الطرفين، ليحلّ بعد ذلك السلام، ثمّ تندلع العمليات القتالية من جديد. وعلى هذا المنوال سار نمط عيش الرحّل الآخرين: كانوا يغيرون دائماً على جيرانهم، ثمّ يعقدون الصلح معهم.

**4-** لقد شنّ الساكيون غزوات، مثلهم في هذا مثل الكيميريين والتريريين: بعض غزواتهم كانت على مناطق بعيدة، وبعضها الآخر على أماكن قريبة، فاستولوا على باكتريانا، وأفضل أراضي أرمينيا التي تركوا لها تسمية مشتقة من اسمهم: ساكاسينا؛ ووصلوا حتّى بلاد القبدوقيين، وعلى وجه التحديد، حتّى أولئك الذين يقطنون على البحر الإيفيكسيني الذي يدعى الآن بالبونتس. ولكنّ القادة العسكريين الذي كانوا في تلك البلاد عندئذٍ، هاجموهم ليلاً بينما كانوا يحتفلون بأحد أعيادهم الشعبية المعتادة بعد اقتسام الغنائم، وأبادوهم تماماً. وإذ رفعوا في هذا السهل فوق إحدى الصخور مزلقاناً، أعطى القادة العسكريون الصخرة شكل التلّ، ثمّ بنوا بعد ذلك سوراً وشيّدوا معبداً لأناهيت والآلهة الذين يشتركون معها في مذبح واحد: للإله الفارس أومان، وأناوات، وأسّسوا عيداً سنوياً مقدّساً، هو الساكيي، الذي لا يزال سكّان زيلا (هكذا يدعى المكان) يحتفلون به حتّى الآن. وزيلا مدينة صغيرة يملك خدم المعبد[3] الشطر الأكبر منها. ثمّ أضاف بومبيوس إلى أراضي المدينة منطقة كبيرة وأسكن سكّانها خارج الأسوار، وعدّها واحدة من المدن التي أسّسها ونظمها بعد الإطاحة بميتريدات.

**5-** إن هذه هي رواية فريق من الكتّاب عن الساكيين. وبحسب فريق آخر أن قورش قاد حملة على الساكيين، لكنّه اضطر إلى الفرار بعد أن خسر المعركة. فعسكر بعد ذلك في موقع ترك فيه الأمتعة مع كثرة من مختلف الاحتياطات التموينية، خاصة النبيذ، ومنح قواته استراحة قصيرة، ثمّ ترك خيامه مليئة بالمؤن، وعند المساء تحرّك متظاهراً بأنه يهرب. وبعد أن قطع مسافة رأى أنها كافية، توقف عن المسير. وفي تلك الأثناء كان الساكيون قد وصلوا إلى معسكر قورش المتروك

واستولوا عليه، وأكلوا حتّى التخمة. عندئذٍ عاد قورش وأدرك الساكيين وهم في حالة سكر شديد؛ فأباد فريقاً منهم وهم نائمون من شدّة السكر، وسقط الآخرون صرعى بسيوف أعدائهم بينما كانوا يرقصون من غير سلاح وهم في حالة من النشوة الباخوسية، فكانت النتيجة هلاك جميعهم تقريباً. أمّا قورش الذي رأى أن نجاحه منّة إلهية، فقد كرّس هذا اليوم يوماً مقدّساً لإلهة الوطن، ودعاه يوم الساكيين. وفي كلّ مكان يقوم فيه معبد لهذه الإلهة تقام احتفالات عيد الساكيين، وهو احتفال من نمط الاحتفالات الباخوسية يرتدي الرجال المشاركون فيه الزّي السكيثي، ويشربون الخمر من غير أن يكفوا عن اللهو بعضهم مع بعض، ومع النسوة اللواتي يشاركنهم الوليمة الاحتفالية.

**6**- لقد برهن الماساجيتيون في حربهم ضدّ قورش على شجاعتهم التي غالباً ما يمتدحها كثيرون؛ ويجدر بنا نحن أن نقتبس المعلومات عن هذا منهم أيضاً. فقد رووا عنهم روايات على المنوال الآتي: يسكن بعضهم الجبال، ويقطن آخرون في السهول، وينتشر فريق ثالث في مناطق المستنقعات التي تشكّل أنهاراً، ويقطن رابع في جزر تقع في قلب المستنقعات. وفضلاً عن هذا يقولون، إن نهر أراكس يغرق البلاد، فينقسم إلى كثرة من الفروع وتصبّ فروعه كلّها شمالاً في بحر آخر[4]، ما عدا فرع واحد يصبّ في الخليج الهركاني. ولا يعبدون إلهاً لهم سوى الشمس، ويقدمون الأفراس ذبائح لها. ولا يتزوّج الرجل منهم سوى زوجة واحدة، لكنّهم يعاشرون زوجات الآخرين، وهو ما لا يخفونه البتّة؛ فمن يرغب في معاشرة امرأة غير زوجته، يعلّق كنانته على المركبة ويدخل عليها علانية. ويرون أن أفضل طرائق الموت، هي تقطيع المسنين إلى قطع صغيرة، وخلط لحمهم مع لحم الخرفان وأكله. أمّا الذين يموتون بأمراضهم فيرمونهم كأي جيفة تصلح طعاماً للوحوش فقط. وهم فرسان خيالة من الطراز الأوّل، ومقاتلون مشاة بواسل؛ سلاحهم السهام، والسيوف، والدروع، والفؤوس الحربية البرونزية[5]؛ ويتزنّرون في المعارك بأحزمة ذهبية، ويضعون على رؤوسهم عصابات. وألجمة جيادهم وأربطتها من الذهب. وليس في بلادهم فضّة، أمّا الحديد فوجوده عندهم قليل، لكنّ النحاس والذهب وفيران.

**7**- بسبب افتقارهم لحبوب البذار، يقتات الماساجيتيون الذين يعيشون في الجزر، على الجذور والثمار البرّية؛ ويصنعون ملابسهم من ألياف الشجر (لأنه ليس عندهم مواش البتّة)؛ ويشربون عصائر ثمار الأشجار المثمرة. ويقتات سكّان المستنقعات

علـى الأسمـاك، ويرتـدون جلـود الفقمـات الـتي تجـيء إلى هنـا مـن البحـر. كمـا يقتـات سكّان الجبال بالثمار البرية أيضاً؛ وليس لدى هؤلاء سـوى قليـل مـن الأغنـام، ولـذلك لا ينحرونهـا، بـل يتركونهـا للأصـواف والحليـب. ويلـوّن هـؤلاء ملابسـهم بطيـف مـن ألـوان مختلفة لا تفقد نضارتها. ولا يعمل سكّان السـهول بالزراعـة (مـع أن الأراضـي الزراعيـة موجـودة عنـدهم)، بـل يعيشـون وفـق نمـط عـيش الرحّل والسـكيثيين، فيقتـاتون بلحـم الخروف والأسماك. ونحن نقف عند هذه القبائل كلّها على نمط عيش مشترك، وهـذا ما أشرت إليه غير مرّة[6]: طقوس الـدفن وشـعائره عنـدهم متشـابهة، وكـذلك عـاداتهم ووقـائع حيـاتهم اليوميـة؛ إنهـم أنـاس أصـلاء قـائمون بـذواتهم، متوحّشـون وعـدوانيون، لكنّهم شرفاء وصادقون في تعاملهم.

**8-** وينتمي إلى قبيلة الماساجيتيين أيضـاً، الأتّاسـيون والخوارسميـون الـذين اختبـأ عندهم من بلاد الباكتريين والسوغديين سبيتامين[7]، وهـو أحد الفرس الذين فـرّوا مـن وجه الإسكندر، مثله بيّس. وفيما بعد عندما فرّ أرسـاك مـن وجـه سـلوقس كالينيـك، لجأ إلى بلاد الأباسياكيين. وبحسب إيراتوسفين إن الأراخـوتيين والماسـاجيتيين يعيشـون بجوار الباكتريين، إلى الغرب منهم على مجرى نهـر أوكـس؛ وتقـع أراضـي السـاكيين والسوغديين كلّها مقابل الهند. أمّا الباكتريون فلا يقع مقابل الهند من أراضيهم سـوى حيّـز صـغير، لأنّ الشـطر الأكـبر منهـا يقـع علـى امتـداد باروبـاميس. ويفصـل نهـر ياكسـارت بـين السـاكيين والسـوغديين، أمّـا نهـر أوكـس فيفصـل بـين السـوغديين والبـاكتريين. ويقطـن التـابيري بـين الهركـانيين والآريـين. وفي ناحيـة قـرب البحـر، وراء منطقـة الهركـانيين يقطـن الأمـارديون، والأنـاريـاكيون، والكـادوسـيون، والألبـانيون، والقزوينيون، والفيتيون، وربّما شعوب أخرى وصولاً إلى بلاد السكيثيين. وعلى الجانب الآخـر مـن الهركـانيين يقطـن الـديربيكيون، أمّـا الكـادوسـيون فيجـاورون الميـديين والماتيانيين عند سفوح باراخوافرا.

**9-** وفيما يخصّ المسافات فإن إيراتوسفين يسـوق الآتـي. مـن جبـل قـزوين إلى نهـر كـير حـوالي 1800 مرحلـة؛ ومـن هنـا إلى البوابـات القزوينيـة 5600 مرحلـة؛ ثـمّ إلى الإسكندرية التي في بلاد الآريين 6400 مرحلة؛ وبعد ذلك حتّى مدينة باكترا (التي تدعى أيضاً زارياسبا) 3870 مرحلة؛ وبعدها إلى نهر ياكسارت (الذي بلغه الإسـكندر) حوالي 5000 مرحلة. والمجموع الكلّي 22670 مرحلة. ويحدّد إيراتوسفين المسافة مـن البوابات القزوينيـة حتّى الهند على النحو الآتي: حتّى هيكـاتومبيلوس 1960 مرحلة،

وحتى الإسكندرية التي في بلاد الآريين 4530 مرحلة؛ وبعد ذلك حتّى بروفتاسيا التي في درانغا 1600 مرحلة، ووفق معطيات أخرى 1500 مرحلة؛ وبعدها حتّى مدينة الأراخوتيين 4120 مرحلة؛ وبعد ذلك حتّى أورتوسبانا، حتّى تقاطع الطرق الثلاث الآتية من باكترا 2000 مرحلة؛ وأخيراً، حتّى حدود الهند 1000 مرحلة. والمجموع الكلّي 15300[8]. وينبغي أن نتخيّل طول الهند من نهر الهندوس حتّى البحر الشرقي كامتداد مباشر لهذه المسافة على خطّ مستقيم. هذه هي معلوماتي عن الساكيين.

## الفصل التاسع

**1**- ليست بارثيا بلاداً كبيرة. أثناء خضوعها لسيطرة الفرس كانت تؤدّي لهم الجبايات مع الهركانيين، وبعد ذلك، في زمن السيطرة المقدونية، بقيت الحال على ما كانت عليه. وعلاوة على عدم أهمية حيّزها الجغرافي، تغطيها غابات كثيفة، وجبال، وهي فقيرة، ولذلك كان الملوك يعبرونها بجحافلهم على عجل، لأنها كانت عاجزة عن إطعامهم حتّى لوقت قصير. لكنّ البلاد باتت الآن أكبر مساحة. فقد دخلت قوامها كوميسينا وخورينا، إضافة إلى كلّ المناطق حتّى البوابات القزوينية تقريباً، وحتى راغي وبلاد التابيري اللتين كانتا تابعتين من قبل لميديا. وتقع غرب راغي مدينتا آفاميا وهيراقليا. ومن البوابات القزوينية حتّى راغي، بحسب أبوللودوروس 500 مرحلة، وحتى عاصمة البارثيين هيكاتومبيلوس 1260 مرحلة. ويقال إن راغي[1] أخذت اسمها من الهزّات الأرضية التي كانت تقع هناك ودمّرت بحسب بوسيدونيوس، مدناً كثيرة وألفيّ قرية. ويقولون إن التابيري يسكنون بين الديربيكيين والهركانيين. ويروى أنه لدى التابيري تقليد تعطى بموجبه النساء المتزوّجات لأزواج آخرين بعد أن ينجبن ولدين أو ثلاثة أولاد، كما في زمننا هذا أعطى كاتون، بحسب التقليد الروماني القديم، مارسيا زوجة لغوتينزي تلبية لطلبه.

**2**- عندما بدأت انتفاضات البلدان الواقعة وراء طوروس، وبسبب انشغال ملكيّ سوريا وميديا اللذين كانا يملكان على هذه البلدان، حرّض الولاة الذين كانوا مكلّفين إدارة شؤون هذه البلدان، وأنا أقصد إلى إيفتيديموس وأنصاره، حرّضوا باكتريانا أولاً، والبلاد المجاورة لها على العصيان، ثمّ حرّضوا أرساك السكيثي مع بعض الدائيين، إضافة إلى الأبارنيين، والرحّل الذين ينتقلون على ضفاف نهر أوخ، وهاجموا بارثيا واستولوا عليها. وفي أوّل الأمر كان أرساك عاجزاً، لكنّ حروبه

المتواصلة التي كانت تؤدّي إلى استيلائه على مزيد من أراضي جيرانه وهو ما تابعه خلفاؤه من بعده، هذه الحروب جعلت منهم قوّة مهولة لكثرة ما انتزعوا من المناطق المجاورة، حتّى أضحوا في آخر المطاف سادة كلّ الإقليم الممتدّ على هذا الجانب من الفرات. كما استولوا على شطر من باكتريانا بعد أن دحروا السكيثيين، وقبلهم إيثيكراتيس وأنصاره. وهم يمتلكون الآن بلاداً مترامية الأطراف فيها كثرة كثيرة من القبائل، وهذا ما يجعل منهم من حيث اتساع حدود دولتهم منافسين للرومان إلى حدّ ما. وسبب ذلك، هو أن نمط عيشهم وعاداتهم بربرية وسكيثية إلى حدّ كبير، لكنّها لا تزال أكثر ملاءمة لتحقيق السيطرة والنجاحات العسكرية.

**3-** ويروى أن الأبارنيين- الدائيين كانوا وافدين من منطقة الدائيين القاطنين على ميوتيدا، والذين يدعونهم كسانديين وباريين. ولكنّ وجود دائيين بين السكيثيين القاطنين على ميوتيدا، أمر لا يقرّ به المتخصصون جميعهم. ويقال، إنّ أرساك ينحدر من هؤلاء السكيثيين؛ بيد أنّ آخرين يرون أنه باكتريّ قاد انتفاضة في بارثيا لينجو من سطوة ديودوت وخلفائه التي كانت تزداد قوّة يوماً عن يوم. ولكن بما أنني أوردت كثيراً من المعطيات عن عادات البارثيين في الكتاب 6 من «مذكّراتي التاريخية»، والكتاب الثاني من مؤلّفي «تاريخ الأحداث بعد بوليبيوس»، فإنني سأتجاوز هذه المسألة هنا تفادياً للتكرار؛ لكني أذكّر فقط بأن مجلس البارثيين الأعلى يتألّف، بحسب بوسيدونيوس من قسمين: في الأوّل منهما أقارب الملك، وفي الثاني الحكماء والسحرة. وينتخبون الملوك من القسمين.

## الفصل العاشر

**1-** تعدّ آريا ومارغيانا أقوى بلدين في هذا الشطر من آسيا؛ وتحيط بهما الجبال جزئياً، والجزء الآخر من مستوطناتهم يقع في السهول. ويقيم في الجبال من يدعونهم «سكّان الخيام»؛ ويجري في السهول نهران يروريانها، وهما آريوس ومارغ. وتجاور آريا باكتريانا [....][1]. وهي تقع على مسافة تقارب 6000 مرحلة من هركانيا. وكانت تؤدّي الإتاوة مع آريا دريانغيانا أيضاً (وصولاً إلى كارمانيا)، التي يقع الشطر الأكبر منها عند سفوح الأجزاء الجنوبية من الجبال؛ بيد أن أجزاء منها تقترب من الجبال الشمالية الواقعة مقابل آريا. وغير بعيد من هنا تقع أراخوسيا أيضاً؛ فهي تقع عند سفوح الأجزاء الجنوبية من الجبال، وتمتدّ حتّى نهر الهندوس، وتؤلّف جزءاً من أريانا. ويبلغ

طول آريا حوالي 2000 مرحلة، وعرض سهلها 300 مرحلة. ومدن هذه البلاد: آرتاكانيا، والإسكندرية، وآخيا، يحمل كلّ منها اسم مؤسّسها. وتنتج البلاد كثيراً من النبيذ الذي يحفظ في آنية غير مطلية بالقار، على مدى ثلاثة أجيال.

**2-** وتشبه مارغيانا هذه البلاد، لكنّ سهلها تحيط به الصحارى. ولمّا أذهلت خصوبة السهل أنطوخ سوتير، أمر بأن يحاط بسور امتداد محيطه 1500 مرحلة، ثمّ بنى هناك مدينة أنطاكيا. وهذه البلاد غنية بكروم العنب. ويروى أنه غالباً ما تشاهد هنا عرائش عنب لا يحيط بجذورها شخص واحد، بل شخصان، وطول عنقود العنب هنا ذراعان(2).

## الفصل الحادي عشر

**1-** تمتدّ أجزاء باكتريا على طول حدود آريا باتجاه الشمال، ويقع الشطر الأكبر منها فوق آريا إلى الشرق منها. وباكتريا بلاد شاسعة تنتج شتّى الغلال، ما عدا زيت الزيتون. وبسبب خصوبة البلاد اكتسب الإغريق الذين حرّضوا باكتريا على العصيان جبروتاً مكّنهم من أن يصبحوا لا سادة أريانا وحدها، إنمّا، وبحسب أبوللودوروس الأرتيميتي، سادة الهند أيضاً؛ لقد أخضع هؤلاء من القبائل أكثر مما أخضع الإسكندر؛ خاصة ميناندرس (إذا صحّ أنه عبر هيبانيس في الشرق واجتاز حتّى وصل إلى إيماي)؛ فقد أخضع هذا بعض القبائل بنفسه، وبعضها الآخر أخضعه ديميتري بن إيفتيديموس ملك الباكتريين. فقد امتلك باتالينا، وما يدعى مملكة ساراوست وسيجيرديدس على ما تبقى من الساحل. وتعدّ باكتريانا على وجه العموم حسناء أريانا، كما يقول أبوللودوروس. وعلاوة على هذا، مدّ الملوك الباكتريون حدود مملكتهم حتّى بلاد السيريين والفرينيين.

**2-** وكانت مدنهم هي: باكترا التي كانت تدعى زارياسبا أيضاً، ويجري فيها نهر يحمل الاسم نفسه ويصبّ في أوكس؛ وداراسبا، وبعض المدن الأخرى. وكانت بين هذه الأخيرة مدينة إيثيكراتيس التي دعيت باسم حاكمها السابق. وقد قسم الإغريق هذه المنطقة بعد أن امتلكوها إلى ولايات؛ انتزع البارثيون ولايتين منها من إيثيكراتيس، هما إسبيون وتوريفا. كما استولوا كذلك على سوغديانا الواقعة إلى الأعلى من باكتريانا نحو الشرق، بين نهري أوكس الذي يفصل بين بلاد الباكتريين وبلاد السوغديانيين وياكسارت. كما يشكّل ياكسارت الحد مع السوغديين والرحّل.

**3**- ففي الأزمنة السابقة لم يكن نمط عيش السوغديين والباكتريين يختلف كثيراً عن نمط عيش الرحّل، إلاّ أن عادات الباكتريين كانت مع ذلك أكثر تحضّراً بعض الشيء؛ لكنّ شهادة أونيسيكريتيس بهم لم تكن إيجابية. فهو يقول إنهم يرمون المرضى الذين لا شفاء لأمراضهم أحياء إلى كلاب يربّونها لهذا الغرض تحديداً، فقد أطلقوا عليها تسمية تعني بلغتهم الأمّ «الدفّانين». وكانت الأراضي الواقعة خارج أسوار عاصمة الباكتريين نظيفة تماماً، بينما الشطر الأكبر من تلك التي داخل الأسوار مليئة بالعظام البشرية؛ لكنّ الإسكندر وضع حدّاً لهذه العادة. كما يروون شيئاً مشابهاً عن القزوينيين: عندما يتجاوز الوالدان عندهم سنّ السبعين، يحتجزونهما في مكان مغلق ويتركونهما ليموتا من الجوع. وهذه العادة أقلّ وحشية، وهي تشبه العادة الكيوسية[1]، على الرّغم من منشئها السكيثي، لكنّ عادة الباكتريين تشبه العادة السكيثية أكثر. وواقع الحال هو أنه إذا كان هذا قد أثار الاشمئزاز حينما أدرك الإسكندر مثل هذه العادات، فما الذي يجب قوله إذن عن تلك العادات التي كانت عند الفرس القدماء، وعند حكّامهم الأكثر قدماً؟

**4**- يقال إن الإسكندر أسّس ثماني مدن في باكتريا وسوغديانا، وهزم عدداً من المدن التي كانت قائمة هناك. ومن هذه الأخيرة، مدينة كارياتا في باكتريا (حيث اعتقل ماليسفين ووضع تحت الحراسة)، ومدينة ماراقند في سوغديانا، ومدينة قورا، وهذه الأخيرة أسّسها قورش على نهر ياكسارت، وهنا كانت نهاية حدود الدولة الفارسية. ومع أن الإسكندر كان يكن احتراماً واضحاً لقورش إلاّ أنه أمر بهدم المدينة بسبب انتفاضات سكّانها المتكررة ضده. وبسبب الخيانة نجح الإسكندر في الاستيلاء على حصنين آخرين كانا مبنيين على الصخور: أحد الحصنين هو حصن سيسميترا في باكتريانا، حيث كانت تقيم روكسانا ابنة أوكسيارت، والآخر أوكس في سوغديانا (أو كما يقول آخرون: أرياماز ا). ويقولون، إن ارتفاع صخرة سيسميترا 15 مرحلة، ومحيطها 80 مرحلة. وقمّة الصخرة مستوية وتغطيها تربة خصبة يمكن أن تطعم 500 نسمة. واستقبل الإسكندر هناك على الرحب والسعة، واحتفل بزفافه على روكسانا ابنة أوكسيارت. ويقولون، إن ارتفاع صخرة سوغديانا أكبر بمرّتين من ارتفاع الصخرة الباكترية. وغير بعيد عن هذه الأماكن دمّر الإسكندر مدينة البرانهيدس الذين أسكنهم كسيراكس هناك؛ وقد سار هؤلاء معه طوعاً

تـاركين مـوطنهم، فقـد قـدّموا لـه ثـروات الإلـه[2] وكنـوزه الـتي في ديـديما. ويـروى أن الإسكندر دمّر المدينة بسبب اشمئزازه من الخيانة وتدنيس المقدّسات.

**5-** ويدعو أريستوبول النهر الذي عبر سوغديانا، بوليتميت، وهو الاسم الذي أطلقه المقدونيون على النهر (فهؤلاء بدّلوا كثيراً من التسميات القديمة، وحرفوا الأسماء الأخرى). وبعد أن يروي النهر البلاد يتّجه نحو الصحراء ومنطقة رملية تبتلعه، كما تبتلع الرمال نهر آريوس الذي يجري عبر الأرض الآرية. ويقال، إنه على مقربة من نهر أوخ، عثر الحفّارون على نبع لمادّة زيتية. والحقيقة أنه كما أن بعض السوائل القلوية والقابضة، التي تحتوي على الإسفلت والكبريت، تنبثق من باطن الأرض، كذلك يمكن أن تنبثق منها أيضاً السوائل الزيتية. لكنّ ندرة هذه الأخيرة هي التي تخلق الانطباع بغرابة الحدث ولامعقوليته[3]. وبحسب قول بعضهم، إنّ أوخ يجري عبر باكتريانا، بينما يقول آخرون، إنه يجري على مقربة منها، ويزعم بعضهم أن أوخ يتميّز عن أوكس حتّى مصبّه إذ يجري إلى الجنوب منه؛ ويصبّ النهران كلاهما في البحر داخل حدود هركانيا؛ وعلى الضدّ من هذا يرى آخرون، أن أوخ، وعلى الرّغم من أنه يختلف في البداية إلاّ أنه يدخل بعد ذلك في مجرى واحد مع أوكس، حيث يصل عرضه في بعض الأماكن إلى 6 أو 7 مراحل. ولكنّ ياكسارت متميّز من منبعه حتّى مصبّه عن أوكس، وهو يصبّ في البحر نفسه؛ وبحسب باتروكلس أن مصبيّ هذين النهرين يبعد واحدهما عن الآخر ما يقارب 80 باراسانغ، ويحدّد بعضهم الباراسانغ الفارسي بـ 60 مرحلة، بينما يحدّده آخرون بـ 30 أو 40 مرحلة. وعندما أبحرت صعوداً في نهر النيل، كانت السخينات[4] تتحدّد بشكل يختلف من مدينة لأخرى، ففي بعض الأماكن كان عدد السخينات نفسه يعني مسافة أطول، وفي بعضها الآخر مسافة أقصر. هكذا كان الأمر منذ البداية، ولا يزال على حاله حتّى يومنا هذا.

**6-** وفي أوّل الأمر كانت القبائل القاطنة إلى الشرق من هركانيا وصولاً إلى سوغديانا على هذا الجانب من طوروس[5]، معروفة للفرس وبعد ذلك للمقدونيين والبارثيين. ويدلّ المظهر الخارجي للقبائل التي تقطن خارج حدود هؤلاء على خطّ مستقيم إنها قبائل سكيثية، على الرغم من أننا لا نعرف عن حملات شنّت عليها، أو على قبائل الرحل في أقصى الشمال. لقد عزم الإسكندر على أن يقود قوّاته ضدّ هؤلاء الرحّل عندما كان يطارد بيّس وسبيتامين؛ وبعد أن وقع بيس في الأسر وأُعيد من حيث أتى، وبعد أن قتل البرابرة سبيتامين، تراجع الملك عن عزمه هذا. ولكنّ خبر إبحار

بعضهم من الهند إلى هركانيا لا يلقى اعترافاً من جميعهم، إلاّ أن باتروكلس يرى أن الأمر كان ممكناً.

**7**- ويقولون، إن أقصى شطر من طوروس (الذي يدعونه إيماي)، الذي يلامس البحر الهندي، لا يبرز البتّة نحو الشرق أبعد من الهند ولا يصل إلى أطرافها. وكلّما تقدمنا شمالاً يُهيَّأ لنا أن البحر يقلّص طول البلاد وعرضها؛ ولذلك يجعل شطر آسيا الذي نصفه الآن والذي يشغل المدى الواقع بين طوروس والمحيط الذي يملأ بحر قزوين، شطراً مقطوعاً نحو الشرق. وأكبر طول لهذا الشطر من آسيا، وهو الطول الذي يمتدّ من البحر الهركاني حتّى المحيط، قبالة إيماي (إذا كانت الطريق تسير على طول سلسلة جبال طوروس)، يصل إلى 30.000 مرحلة، وعرضه أقلّ من 10.000 مرحلة. وكما قلت سابقاً[6]، إن المسافة من خليج إيّس حتّى البحر الشرقي عند الهند، حوالي 40.000 مرحلة، ومن أطراف أعمدة هرقل حتّى إيّس 30.000 مرحلة أخرى. ويقع الشطر الأقصى من خليج إيّس إلى الشرق قليلاً (أو قليلاً جدّاً) من أميس؛ أمّا المسافة من أميس إلى الأرض الهركانية (التي تقع على موازاة المسافة من إيّس إلى الهند)، فهي تشكّل ما يقارب 10.000 مرحلة. وتبعاً لهذا يبقى الامتداد الطولي الذي أشرنا إليه، والذي يمتدّ إلى الشرق من الشطر الذي وصفناه هنا: على وجه التحديد 30.000 مرحلة. وبما أنّ أقصى عرض للمعمورة التي لها شكل الكلاميس[7]، يشكل ما يقارب 30.000 مرحلة، فإن هذه المسافة تبدو قريبة من دائرة الطول الممتدة عبر البحر الهركاني والبحر الفارسي، إذا كان امتداد طول المعمورة 70.000 مرحلة. وإذا كانت المسافة من البحر الهركاني إلى أرتيميتا في بابل 8000 مرحلة، كما يزعم أبوللودوروس الأرتيميتي، ومن هنا إلى مدخل الخليج الفارسي 8000 مرحلة أخرى، إضافة إلى أقلّ بقليل من 8000 ثالثة حتّى البلاد الواقعة على دائرة عرض واحدة مع أطراف إيثوبيا، فإنّ ما يبقى من عرض المعمورة المذكور، هو المسافة من وهدة البحر الهركاني إلى مدخله، وهي المسافة التي ذكرتها سابقاً[8]. وبما أن هذه القطعة من الأرض تغدو مدبّبة بالاتجاه نحو الأجزاء الشرقية، فإنها تشبه من حيث الشكل سكين الطبّاخ، وفي الوقت نفسه يمتدّ الجبل على خطّ مستقيم ليبدو كأنه نصل هذه السكين، أمّا الساحل من مدخل البحر الهركاني إلى تامار، فيبدو كأنه الجانب الآخر للسكين التي تنتهي بخطّ مثني مدبّب.

**8**- ويجدر أن نشير إلى بعض العادات الشاذّة الشائعة لدى الشعوب البربرية

الخالصة، التي يروون عنها دائماً؛ ومنها على سبيل المثال عادات الشعوب التي تعيش قرب القفقاس وما تبقّى من هذه البلاد الجبلية. فيقولون، إن مقولة يوريبيدس الآتية ذهبت عندهم عادة من العادات:

**ابك الابن الوليد، فالحياة تخبّئ له غير قليل من الألم.**

**أمّا المتوفى الذي تخلّص من النكبات،**

**فأخرجه من البيت بفرح وإجلال.**

*(كريسفونت، مقطع 449. ناؤوك)*

وهناك آخرون لا يقتلون حتّى أعتى المجرمين، ويكتفون بطردهم مع عائلاتهم إلى خارج البلاد، على الضدّ من عادة الديربيكيين الذين يحكمون بالموت لأتفه الهفوات. ويعبد هؤلاء الأرض الأمّ؛ ولا يقدّمون أيّ قرابين، ولا يأكلون أيّ كائن أنثى. ويقتل الديربيكيون رجالهم الذين يتجاوزون السبعين من العمر، ويأكل أقارب هؤلاء أجسادهم؛ أمّا النسوة العجائز فيقتلونهنّ خنقاً، ثمّ يدفنونهنّ. ويتّبع السيغينيون عادات الفرس في أشياء كثيرة، ما عدا أنهم يستخدمون الأفراس الصغيرة الشعثاء التي لا قدرة لها على أن تحمل الفرسان فيقرنونها أربعاً لجرّ المركبات التي تقودها النساء اللواتي يجري إعدادهن لهذا العمل منذ الطفولة، ومن حق الحوذية الأكثر مهارة أن تعاشر أي رجل تختار. ويقال، إن قبائل أخرى تعمل جاهدة على أن تبدو رؤوس أفرادها أطول، وجباههم بارزة إلى الأمام فوق ذقونهم. وعند التابيري يرتدي الرجال ثياباً سوداء ويطلقون شعرهم طويلاً، أمّا النساء فيرتدين ملابس بيضاء، وشعرهنّ قصير. ويقطن هؤلاء بين الديربيكيين والهركانيين. والرجل الذي يعترفون له بأنه الأكثر شجاعة، يحقّ له أن يتزوّج أي امرأة يشاء. أمّا القزوينيون فيميتون جوعاً كلّ من يتجاوز منهم السبعين من العمر، ويرمون جثامينهم في البراري؛ ثمّ يراقبون من بعيد: إذا أخذت الطير تحمل الجثامين من النقالات، فذلك يعني أن الميت مغبوط في النعيم، أمّا إذا حملت جثامينهم الوحوش أو الكلاب، فهذا يعني أنهم أقلّ غبطة؛ وإذا ما بقيت الجثامين على حالها ولم يقربها أحد، فذلك يعني التعاسة للمتوفين.

## الفصل الثاني عشر

**1-** بما أن طوروس تشكّل الأجزاء الشمالية من آسيا، التي تدعى آسيا «التي على هذا الجانب من طوروس»[1]، فقد رأيت من الأفضل أن أعطي قبل كلّ شيء

وصفاً لهذه الأجزاء. وتتبع لهذه الأجزاء، المناطق التي تقع كلّها أو أكبر أجزائها، في الجبال نفسها. وكلّ الأجزاء الواقعة إلى الشرق من البوابات القزوينية، تحتاج، بسبب وحشيتها، وصفاً أكثر بساطة؛ وربّما لا يكون هنا فرق كبير إذا ما ألحقناها بهذا «الإقليم»[2] أو ذاك. أمّا الأجزاء الغربية فهي على الضدّ من ذلك، تقدّم مادّة غنية للوصف، ولذلك ينبغي أن ننتقل إلى المناطق الواقعة عند البوابات القزوينية. فمن الغرب تجاورها ميديا، وهي بلاد شاسعة كان لها جبروتها في زمن مضى، وهي تقع في وسط طوروس الذي يتشعّب هناك إلى كثير من الذيول، ويحتوي كثيراً من الوديان، كما هي عليه الحال في أرمينيا.

**2-** ويبدأ هذا الجبل في كاريا وليكيا، لكنّه لا يبلغ هناك عرضاً كبيراً أو ارتفاعاً ملحوظاً، فأوّل ارتفاع ملحوظٍ له يقع قرب خيليدونيوس (وهي جزيرة في أوّل ساحل بامفيليا). ثمّ يمتدّ طوروس شرقاً ليضمّ الوديان الصغيرة[3] في كيليكيا؛ وعلى أحد جانبيه ينفصل الأمانوس، وعلى الجانب الآخر أنتيطوروس، حيث تقع كومانا في قبدوقيا العليا. وينتهي أنتيطوروس في كاتاونيا، أمّا جبل الأمانوس فيمتدّ حتّى الفرات وميليتينا، حيث تجاور كومّاجينا قبدوقيا. وامتداده هنا يتشكل من جبال الجانب الآخر من الفرات التي تتّصل مباشرة بالجبال التي أشرنا إليها، ماعدا أن هناك نهراً يجري بينها. وهنا يزداد بشكل ملحوظ ارتفاع الجبل وعرضه، ويتشعب إلى شعب كثيرة. وأقصى جزء إلى الجنوب، هو طوروس الذي يفصل بين أرمينيا ووادي الرافدين.

**3-** ويتدفق من هناك النهران: الفرات ودجلة؛ اللذان يطوّقان وادي الرافدين، ويقترب بعضهما من بعض في بابل، ثمّ يصبّان في البحر الفارسي. وليس الفرات هو الأكبر بينهما فقط، إنما يقطع في مجراه الملتوي أراضي أكثر أيضاً. وتقع منابعه في الشطر الشمالي من طوروس؛ ويجري الفرات غرباً عبر ما يدعونها أرمينيا الكبرى حتّى يصل إلى أرمينيا الصغرى، وتقع هذه الأخيرة على ضفته اليمنى، بينما تقع أكيليسينا على ضفّته اليسرى. ثمّ ينعطف النهر نحو الجنوب، فيلامس في هذا المنعطف حدود قبدوقيا. وبعد أن يتجاوز هذه الحدود ومنطقة كومّاجينا على يمينه وأكيليسينا وسوفينا التي في أرمينيا الكبرى على يساره يجري النهر حتّى سوريا ثمّ ينعطف من جديد نحو بابل والخليج الفارسي. أمّا دجلة فينطلق من الشطر الجنوبي لهذا الجبل نفسه، ويجري نحو سلوقيا مقترباً كثيراً من الفرات؛ وهنا يشكل مع الفرات منطقة ما بين النهرين، ثمّ يصبّ في الخليج نفسه الذي يصبّ الفرات فيه. وتقع منابع

الفرات ودجلة بعيدة بعضها عن بعض 2500 مرحلة تقريباً.

**4**- ويتشعب من طوروس نحو الشمال كثير من الشعب الجبلية، أحدها الذي يدعى أنتيطوروس. ويحمل هذا الاسم جبل يطوّق سوفينا في واد يقع بينها وبين طوروس. وعلى ذلك الجانب من الفرات، قرب أرمينيا الصغرى نحو الشمال، يمتدّ إثر أنتيطورروس جبل كبير وكثرة من الشّعب الجبلية الأخرى. ويدعى أحد هذه الشّعب باريادرس، والآخر: الجبال الموسيخية، ويحمل الثالث تسميات مختلفة. وتشغل هذه الجبال أرمينيا كلّها وصولاً إلى إيبيديا وألبانيا. وترتفع الجبال الأخرى شرقاً، وعلى وجه التحديد تلك التي تقع فوق بحر قزوين وصولاً إلى ميديا: ميديا الأتروباتية، وكذلك ميديا الكبرى. إن أجزاء الجبال هذه كلّها، وكذلك تلك التي تمتدّ حتّى البوابات القزوينية، وتلك التي تمتدّ نحو الشرق أيضاً، تدعى إذ تلامس آريا، جبال باراخوافرا. وتحمل الجبال الشمالية هذا الاسم نفسه، أمّا الجنوبية الواقعة على ذلك الجانب من الفرات، التي تمتدّ إلى الشرق من قبدوقيا وكوماجينا، كانت تدعى في الأوّل طوروس الذي يفصل سوفينا وباقي أرمينيا عن وادي الرافدين. ويدعو بعضهم هذه الجبال، الجبال الغوردية. ومن هذه الأخيرة، جبل ماسوس الذي يرتفع فوق نيسبيا وتيغرانوكيرتا. وبعد ذلك يرتفع طوروس أعلى فأعلى ويدعى نيفات. وتقع هنا في مكان ما على الجانب الجنوبي من البلاد الجبلية، منابع الفرات. وبعد نيفات تمتدّ السلسلة الجبلية أبعد فأبعد لتشكل جبل زاغروس الذي يفصل بين ميديا وبابل. وبعد زاغروس فوق بابل، تقع بلاد العيلاميين والباريتاكينيين الجبلية، وتقع إلى الأعلى من ميديا بلاد الكوسيين. وفي الوسط تقع ميديا وأرمينيا التي تضمّ كثيراً من الجبال، والهضاب، وكذلك السهول والوديان الكبيرة، وكثيراً من الشعوب الجبلية التي تقطن الأطراف، أكثرها صغير وقطاع طرق. وعلى هذا النحو إنني أوضّح على هذا الجانب من طوروس ميديا (التي تضمّ البوابات القزوينية) وأرمينيا.

**5**- ومن وجهة نظرنا إن هذه الشعوب تنتمي إلى الشعوب الشمالية، لأنها تقطن هذا الجانب من طوروس أيضاً؛ لكنّ إيراتوسفين الذي أرسى تقسيم آسيا إلى جنوبية وشمالية وما دعاها «سفراجيدس»[4] (دعا بعضها «بالسفراجيدس» الشمالية، والأخرى «السفراجيدس» الجنوبية)، يرى أن البوابات القزوينية هي الحدّ الفاصل بين «الإقليمين». ولذلك يمكنه أن يرى في الأجزاء الواقعة جنوبي البوابات القزوينية (ومنها ميديا وأرمينيا) آسيا الجنوبية والأجزاء الواقعة شمالي البوابات القزوينية، آسيا

الشمالية، لأنّ هذا يرتبط باختلاف الوسائل المعتمدة لتقسيم البلاد. فربّما لم يخطر لإيراتوسفين أن وراء طوروس نحو الجنوب لا يقع أيّ شطر من أرمينيا أو ميديا.

## الفصل الثالث عشر

**1-** تنقسم ميديا إلى شطرين. دعوا الشطر الأوّل ميديا الكبرى، ومدينتها الرئيسة إيكباتانا، وهي مدينة كبيرة وعاصمة الدولة الميدية (ولا تزال حتّى الآن عاصمة البارثيين، وفيها يقضي ملكهم فصل الصيف في أقلّ تقدير، لأنّ ميديا بلاد باردة، ويقضون الشتاء في سلوقية دجلة الواقعة غير بعيد عن بابل). أمّا شطرها الثاني، فهو ميديا الأتروباتية؛ وقد أخذت هذه اسمها من القائد العسكري[1] أتروبات الذي لم يسمح بأن تتحوّل هذه البلاد بصفتها جزءاً من ميديا الكبرى، إلى بلاد خاضعة لسلطة المقدونيين. وقد جعل أتروبات الذي أُعلن ملكاً، من هذه البلاد بلاداً مستقلّة فعلاً، ولا تزال وراثة العرش في سلالته حتّى يومنا هذا، لأنّ أحفاده تزاوجوا مع ملوك أرمينيا وسوريا، وبعد ذلك مع الملوك البارثيين.

**2-** وتقع هذه البلاد إلى الشرق من أرمينيا وماتيانا، وإلى الغرب من ميديا الكبرى وإلى الشمال من البلدين كليهما؛ وتتاخم من الجنوب المناطق الواقعة قرب منخفض البحر الهركاني وماتيانا. وتعدّ ميديا الأتروباتية بلاداً يحسب لها حساب من حيث القوّة العسكرية، فهي قادرة أن تجنّد على حدّ قول أبوللونيدس، 10.000 فارس و40.000 مقاتل من المشاة. وتقع في ميديا بحيرة كابافتا، حيث يحدث تبلور الأملاح وترسّبها. وتثير هذه الأملاح الحكّة وإحساساً بالمرض؛ وترياق هذا المرض، هو زيت الزيتون، وينقّي الماء العذب الثياب الملوثة بالأملاح إذا ما غسلت فيها عن غير قصد. والحقيقة أنّ للأتروباتيين جيران أقوياء وجبابرة، هم الأرمن والبارثيون الذين غالباً ما يغزون البلاد وينهبونها. لكنّ الأتروباتيين يصدون الغزو ويستعيدون الأراضي التي تنتزع منهم؛ فقد انتزعوا سيمباكا من الأرمن مثلاً، عندما بات هؤلاء تحت سيطرة الرومان؛ وعقدوا معاهدات صداقة مع قيصر؛ ولكنّهم في الوقت نفسه حاولوا استرضاء البارثيين.

**3-** عاصمتهم الصيفية، هي مدينة غازاكا الواقعة في منطقة سهلية، وعاصمتهم الشتوية، هي القلعة الحصينة فيرا التي حاصرها أنطونيو عندما شنّ حملته على البارثيين. وتقع فيرا هذه على بعد 2400 مرحلة عن نهر أراكس الذي يفصل بين

أرمينيا وأتروباتينا، كما ينقل ديللوس صديق أنطونيو الذي أرّخ لحملته البارثية التي شارك هو نفسه فيها بصفته ليغاتوس. وتتميّز مناطق هذه البلاد كلّها بالخصوبة، ومنطقتها الشمالية جبلية قاسية وباردة، وتقطن هنا القبائل الجبلية: الكادوسيون، والأمارديون، والتابيري، والكيرتيون وسواهم من الشعوب المتنقلة التي تمارس النهب واللصوصية. فهذه الشعوب مشتتة في مختلف أرجاء زاغروس ونيفات: الكيرتيون والمارديون في بيرسيدا (فالمارديون يحملون مثل هذه التسمية أيضاً)، كما لا تزال حتّى الآن تعيش في أرمينيا قبائل تحمل اسمهم نفسه، وهؤلاء كلهم متماثلون بالمظهر الخارجي.

**4**- ويتفوّق الأريانيون على الكادوسيين قليلاً من حيث أعداد المقاتلين المشاة؛ لكنّ مهارة هؤلاء الأخيرين في قذف المزاريق لا يدانيها أحد؛ وفي المناطق الجبلية يقاتل هؤلاء بدلاً من الفرسان. ولكن لا علاقة للشروط الطبيعية للمكان في عرقلة حملة أنطونيو، إنمّا مرشده، الملك الأرميني أرتافاسد الذي جعله أنطونيو مستشاره وقائد خططه الحربية من غير أي حسابات أخرى (مع أن أرتافاسد كان يتآمر عليه)، هو الذي أفسد كلّ شيء. والحقيقة أن أنطونيو عاقبه، لكنّه تأخّر كثيراً في ذلك، إذ تبيّن أن الملك مسؤول عن كثير من المآسي التي حلّت بالرومان، ولم يقتصر الأمر على أرتافاسد وحده، بل انضمّ إليه أيضاً المرشد الآخر الذي قاد أنطونيو من زيغما على الفرات حتّى حدود أتروباتينا في طريق طولها 8000 مرحلة عبر الجبال في طرقات لا معالم لها، أي في طريق متعرجة طولها ضعفا الطريق المباشرة.

**5**- بعد أن دمّرت ميديا الكبرى قديماً دولة السوريين، بسطت سيطرتها على آسيا كلّها. لكنّ قورش والفرس سلبوها فيما بعد جبروتها هذا في عهد أستياغ، ومع ذلك حافظت إلى حدّ بعيد على مجد الأسلاف. لقد كانت إيكباتانا العاصمة الشتوية[2] لملوك فارس، وللمقدونيين أيضاً، الذين بسطوا سيطرتهم على سوريا بعد أن أخضعوا فارس؛ ولا تزال هذه المدينة حتّى يومنا توفّر للملوك البارثيين وسائل الاستجمام نفسها والأمان نفسه.

**6**- وفي الشرق تتاخم ميديا الكبرى بارثيا وجبال الكوسيين، وهم قبيلة من قطاع الطرق كانت تجنّد فيما مضى 13000 من رماة السهام أثناء تحالفها مع العيلاميين ضدّ السوسيين والبابليين. وينقل نيارخس أنه كانت توجد هنا أربع قبائل من قطاع الطرق؛ وكان المارديون منها يجاورون الفرس، والأوكسيون والعيلاميون

يجاورون الماردين والسوسيين، والكوسيون يجاورون الميديين. لقد أرغم هؤلاء كلّهم الملوك على أن يؤدّوا لهم الإتاوات، أمّا الكوسيون فقد كانوا يتلقون الهدايا عندما يكون الملك في طريق عودته إلى بابل من إيكباتانا التي قضى فصل الصيف فيها. لكنّ الإسكندر هاجمهم شتاءً ووضع حدّاً لغدرهم وعربدتهم. إذن، في الشرق تجاور ميديا الكبرى هذه القبيلة، كما تجاور الباريتاكينيين أيضاً (قبيلة جبلية من قطاع الطرق)، الذين يجاورون الفرس. وفي الشمال تجاور الكادوسيين الذين يقطنون إلى الأعلى من البحر الهركاني، إضافة إلى القبائل الأخرى التي تحدّثت عنها للتوّ. وفي الجنوب تجاور ميديا الكبرى أبوللونياتيدس (التي دعاها القدماء سيتاكينا)، وجبال زاغروس حيث تقع ماساباتيكا التي تتبع ميديا (أو عيلام بحسب آخرين). وأخيراً، في الشرق تجاور ميديا الأتروباتيين، والأرمن جزئياً. وفي ميديا مدن إغريقية أيضاً، أسّسها المقدونيون؛ وأذكر من هذه المدن لاوديكا، وأفاميا، ومدينة تقع عند راغا[3]، وراغا[4] نفسها أسّسها سلوقس نيكاتور. وقد دعاها هذا الأخير يوروبوس، أمّا البارثيون فقد دعوها أرساكيا. وبحسب أبوللودوروس الأرتيميتي، إن هذه المدينة تقع على بعد يقارب 500 مرحلة إلى الجنوب من البوابات القزوينية.

**7**- إنّ الشطر الأكبر من ميديا جبال شاهقة، وهي بلادة باردة. ومن هذه الجبال تلك التي تعلو فوق إيكباتانا، وتلك الواقعة عند راغا والبوابات القزوينية والمناطق الشمالية على وجه العموم، من هنا حتّى ماتيانا وأرمينيا. أمّا المنطقة الواقعة إلى الأسفل من البوابات القزوينية، المنطقة الواقعة في الوهاد والمنخفضات، فإنها على الضدّ، شديدة الخصوبة وتنتج شتّى أنواع الغلال، ما عدا الزيتون. وإذا كان شجر الزيتون ينمو هنا وهناك، فإنّ ثماره جافة ولا تعطي أيّ زيت. وهذه البلاد مثلها مثل أرمينيا، «غنية بالخيل» غنى لا مثيل له. وثمّة مرج هنا يحمل اسم «الوفير الخيل»[5] يعبره المتّجهون من بيرسيدا وبابل إلى البوابات القزوينية، ويقولون إنه في الأزمنة الفارسية كانت ترعى في هذا المرج 50.000 مهرة. لقد كانت تلك هي القطعان الملكية. وفيما يتعلّق بالجياد النيسية التي كان يستخدمها الملوك بصفتها الجياد الأفضل والأكبر، فإنّ بعضهم يزعم أنها محلّية المنشأ، ويزعم آخرون أنها من أرمينيا. ومثلها مثل الجياد البارثية تتميّز هذه بميزة فريدة مقارنة بالجياد الهلاّدية وسواها من جياد بلادنا الأخرى. ونحن نعطي الأعشاب التي تعدّ أفضل علف للجياد، تسمية خاصة، هي الأعشاب «الميدية» لأنها تنمو هناك بكميات كبيرة. كما تنتج الأرض الميدية نبات السلفيوم،

ومن هناك يؤتى بما يدعى العصير «الميدي»، الذي لا يرقى أبداً إلى مستوى «القوريني»، لكنّه يتفوّق عليه أحياناً إمّا بفضل الشروط المحلّية، أو بسبب تبدّل نوع النبات، أو بسبب سعي جامعيه وصانعي العصير منه، الذين ينجحون في جعل العصير يحفظ لزمن طويل لكي يستخدم فيما بعد.

**8-** إنّ هذا هو طابع البلاد. أمّا فيما يخصّ حجمها، فإن طولها وعرضها متساويان تقريباً. وأقصى عرضها تبلغه ميديا في المدى الممتدّ من معابر زاغروس (التي تدعى البوابات الميدية)، حتّى البوابات القزوينية عبر سيغريانا: 4100 مرحلة. ويتوافق حجم البلاد وجبروتها مع المعطيات عن أحجام الإتاوات التي تجبى منها: لقد كانت قبدوقيا تجمع للفرس سنوياً (ما عدا الضرائب النقدية)، 1500 فرس، و2000 بغل، و50.000 رأس غنم، بينما كان الميديون يؤدّون لهم ضعف هذه الإتاوة تقريباً.

**9-** وأكثر عادات الميدين هي عينها التي عند الأرمن، والسبب في هذا هو تشابه بلديهما. ولكن يقال، إن الميديين هم آباء العادات الأرمينية، وقبل الفرس ساد ملوكهم وأحفادهم في آسيا. فما يدعونه الآن «الستولا»[(6)] الفارسية، على سبيل المثال، ومثلها شغفهم برمي السهام، وركوب الخيل، وخدمة الملوك، والزيّ الذي يرتديه ملوكهم، وتبجيل المواطنين لملوكهم تبجيلاً إلهياً، هذا جاءهم من الميديين. وتتّضح صحّة هذا القول أكثر ما تتّضح على مثال ملابسهم: التيارا[(7)]، والكيتارا[(8)]، وقبعة اللبّاد، والقفطان ذو الكمّين، والسروال؛ فهذه الملابس تلائم الطقس البارد الذي يسود في البلدان الشمالية، كما هي حال البلدان الميدية، لكنّها لا تلائم الأقاليم الجنوبية قط. وأكثر مستوطنات الفرس كانت تتوضّع على البحر الأحمر، إلى الجنوب من بلاد البابليين والسوسيين، وبعد أن وضع الفرس حدّاً للدولة الميدية، ألحقوا بعض المناطق المجاورة لميديا بأملاكهم. ولكنّ المنتصرين رأوا أن عادات الشعب الذي هزموه، تستحقّ كلّ الاحترام وتلائم الفخامة الملكية، فقرّروا أن يرتدوا الملابس النسائية ويتدثروا بالمعاطف، بدل أن يتجوّلوا شبه عراة أو في ملابس خفيفة.

**10-** وبحسب بعضهم إنّ ميديا هي التي كرّست ارتداء هذه الملابس عندما كانت تحكم هذه البلاد مع ياسون. ويقال، إنّ ميديا كانت تغطي وجهها أيضاً حينما كانت تخرج إلى الناس بدلاً من الملك. وشواهد ياسون تستخدم معابد على شرف البطل ياسون، وهي تحظى باحترام كبير لدى البرابرة (وفوق البوابات القزوينية، على الجهة اليمنى، يرتفع جبل كبير يدعى ياسونيوس)؛ وقد تمثّلت ذكرى ميديا في الأزياء واسم

البلاد. ويزعمون أنّ ابنها ميدس ورث سلطتها وترك اسمه لتحمله البلاد. ويتوافق مع هذا الخبر، وجود معابر ياسون في أرمينيا، واسم البلاد، وأشياء أخرى كثيرة سأتحدّث عنها في حينه.

**11**- واختيار الشخص الأكثر شجاعة وبسالة لكي يكون ملكاً، هي عادة ميدية أيضاً؛ لكنّ هذه العادة ليست ديدناً للميديين كلّهم، بل لميديّ الجبال فقط، أمّا العادة الأكثر شيوعاً عند الميديين كلّهم، فهي عادة تعدد الزوجات لدى ملوكهم. وعند ميديّ الجبال تتسحب هذه العادة على الرجال كلّهم، إذ لا يسمح لأيّ رجل هناك أن يكون لديه أقلّ من خمس زوجات. ويقولون، إن النساء أيضاً يتفاخرن بكثرة عدد الأزواج لديهنّ، ويرون في المرأة امرأة تاعسة سيّئة الحظ إذا كان لديها أقلّ من خمسة أزواج[9]. ومع أنّ الباقي من ميديا شديد الخصوبة، إلاّ أنّ شطرها الشمالي الجبلي فقير مدقع. فسكّانها يقتاتون بثمار الشجر، ويخبزون من التفاح المجفف المجروش؛ ويصنعون الخبز من اللوز المشوي؛ ويعتصرون نبيذاً من بعض الجذور؛ ويستخدمون لحوم الوحوش في غذائهم، لكنّهم لا يربّون الحيوانات المنزلية. إن هذه هي معلوماتي عن الميديين. أمّا فيما يخصّ العادات الميدية المشتركة، فإنها متماثلة مع العادات الفارسية نتيجة لاستيلاء الفرس على البلاد، وأنا سأتحدّث عنها لدى حديثي عن الفرس.

## الفصل الرابع عشر

**1**- تغطّي طوروس الأجزاء الجنوبية من أرمينيا وتفصلها على كلّ المنطقة الواقعة بين الفرات ودجلة، وهي المنطقة التي يدعونها بلاد ما بين النهرين؛ وتتاخم أجزاؤها الشرقية حدود ميديا الكبرى وأتروباتينا؛ أمّا أجزاؤها الشمالية فهي جبال باراخوافرا الواقعة فوق بحر قزوين، وألبانيا، وإيبيريا والقفقاس الذي يحيط بهذه الشعوب ويجاور أرمينيا، كما يجاور أيضاً الجبال الموسخية والكولخية وصولاً إلى الذين يدعونهم تيبارنيين؛ وفي الغرب تقع هذه الشعوب، وجبل باريادرس وسكيديس حتّى أرمينيا الصغرى ومنطقة الفرات التي تفصل أرمينيا عن قبدوقيا وكوماجينا.

**2**- ينبع الفرات من الجانب الشمالي لطوروس؛ ويجري في الأوّل نحو الغرب عبر أرمينيا، ثمّ ينعطف نحو الجنوب ويقطع طوروس بين أرمينيا وقبدوقيا، وكوماجينا؛ وبعد أن يتجاوز طوروس ويبلغ سوريا، ينعطف النهر نحو المطلع الشتوي للشمس[1] حتّى

بابل، ليشكل مع دجلة منطقة ما بين النهرين. وينتهي النهران معاً إلى الخليج الفارسي. إن هذه هي البلدان التي تحيط بأرمينيا؛ وهي كلّها بلدان جبلية غير مستوية، ما عدا شطر صغير يتّجه نحو ميديا. ولكن، بما أن طوروس الذي ذكرناه سابقاً[2]، يبدأ من جديد على الجانب الآخر من الفرات مقابل كوماجينا وميليتينا (منطقتان يشكلهما الفرات)، فإن ماسوس جبل يعلو في الجنوب فوق الميغدونيين وبلاد ما بين النهرين التي تقع نيسيبيا في منطقتهم، بينما تقع سوفينا في الأجزاء الشمالية بين ماسيوس وأنتيطوروس. ويبدأ أنتيطوروس عند الفرات وطوروس، وينتهي في الشطر الشرقي من أرمينيا؛ ويضمّ على أحد جانبيه وسط سوفينا[3]، وعلى الجانب الآخر تقع أكيليسينا الواقعة بين أنتيطوروس ومنطقة الفرات النهرية حتّى منعطف هذا الأخير نحو الجنوب. والعاصمة الملكية في سوفينا هي كاركافيوكريتا. ويرتفع قبالة غورديينا نحو الشرق جبل نيفات فوق جبل ماسوس؛ ثمّ يأتي بعد ذلك جبل آب الذي ينبثق منه الفرات وأراكس، فيتّجه الأوّل غرباً، والثاني شرقاً؛ وأخيراً جبل نيبار الذي يمتدّ حتّى ميديا.

**3**- وأنا كنت قد وصفت مجرى الفرات. أمّا أراكس فإنه يتّجه في الأوّل شرقاً حتّى أتروباتينا، ثمّ ينعطف نحو الغرب والشمال ليجري أوّلاً على مقربة من أزارا، وبعد ذلك قرب أرتاكساتا، وهما مدينتان أرمينيتان؛ وبعد أن يعبر سهل أراكسينا يصبّ في نهاية المطاف في بحر قزوين.

**4**- وفي أرمينيا نفسها كثير من الجبال والهضاب، حيث لا تنمو عرائش العنب إلاّ بصعوبة؛ وهناك كثير من الوديان أيضاً، لكنّ بعضها لا يتميّز بخصوبة خاصة، بينما بعضها الآخر على الضدّ يتميّز بخصوبة فريدة، كما هي حال سهل أراكس الذي يجري فيه نهر أراكس حتّى حدود ألبانيا، ليصبّ في بحر قزوين. وتلي هذا السهل منطقة ساكاسينا التي تتاخم أيضاً ألبانيا ونهر كير؛ وأبعد من هذا تقع منطقة غوغارينا. وتمتلئ هذه البلاد كلّها بالثمار البرية وثمار الشجر الذي يزرعه الإنسان، وبالشجر الدائم الخضرة؛ كما ينمو الزيتون هنا أيضاً. وتعدّ فافينا[4]، ومثلها كوميسينا، وأورخيستينا ولايات أرمينية، وهي التي تقدّم العدد الأكبر من الفرسان. أمّا خورزينا وكامييسينا فإنهما الأبعد نحو الشمال، وتكثر الثلوج فيهما أكثر من المناطق الأخرى؛ إنهما تقعان على الحدود مع جبال القفقاس، وإيبيريا وكولهيدا. ويقولون إن قوافل كاملة تهلك هنا على المعابر الجبلية عندما تتساقط الثلوج بقوة. وتحسباً لهذا الخطر يحمل الرحالة معهم عيداناً خاصة يخرجونها من وقت لآخر من

تحـت الثلـوج إلى السـطح ليفتحـوا متنفسـاً ويعطـوا إشـارة إلى العـابرين ليـأتوا لنجـدتهم. ويقولـون، إن جلاميـد جليديـة مجوّفـة تتشـكل هنـا، وتحتـوي كمـا في سـحابة مـن الجليـد، مياهـاً جيّـدة تسـرح فيهـا كائنـات حيـة يـدعوها أبوللونيـدس ديـداناً، أمّـا ثيوفانوس فيدعوها أساريع. ويقال، إن هذه الجلاميد الجليدية تحتوي على مياه ممتازة تستخدم للشرب بعد ثقب قشرة الجلمود. ويرى بعضهم أن نشوء هذه الكائنات الحية مثله مثل نشوء البعوض من الشعلة والشرر من المناجم.

**5-** ويروون بعد ذلك إنّ أرمينيا كانت في الأزمنة الغابرة بلاداً صغيرة، ضاعفت حجمهـا حـروب أرتاكسـوس وزاريـادرس. وكـان هـذان في بـادئ عهـدهما قائـديين عسكريين لدى أنطوح الأكبر، وبعد هزيمته، صارا إلى ملكين (الأوّل على سوفينا، وأكسـينا، وأودمـانتس وبعـض المنـاطق الأخـرى؛ والثـاني علـى الـبلاد الواقعـة حـول أرتاكساتا)؛ لقد زاد هذان معاً حدود أملاكهما فانتزعا شطراً من أراضي الشعوب المحيطة بهما، وتحديداً أراضي الميديين، إذ انتزعا منهم قزوينيا، وفافنيتيـدس، وباسوروبيدا؛ وانتزعا من الإيبيريين منحدرات باريادرس، وخورزينا، وغوغارينا التي تقع على الجانب الآخر من نهر كير؛ وانتزعا من الخاليبيين والموسينيكيين كارينيتيدا وكسيراكسينا التي تتاخم أرمينيا الصغرى أو تعدّ جزءاً منها؛ ومن الكاتاونيين إكيليسينا والمنطقة المحيطة بأنتيطوروس؛ وأخيراً انتزعا من السورين تارونتيدا. ولذلك تتحدّث هذه الشعوب كلّها الآن لغة واحدة.

**6-** ومـدن أرمينيـا هـي: أرتاكسـاتا (الـتي يـدعونها أيضـاً أرتاكسياسـاتا) الـتي أسّسها هنيبعل للملك أرتاكسوس، وأركساتا؛ وتقع هاتان المدينتان على نهر أراكس: أركساتا على مقربة من حدود أتروباتيا، وأرتاكساتا غير بعيد عن سهل أراكسينا؛ وهي مدينة غنية منظمة وعاصمة البلاد، تقع على مرتفع يشبه شبه الجزيرة، ويجري أمام أسوارها من الجهات كلّها نهر، ما عدا حيّز البرزخ الذي يحميه خندق وسياج من الأوتاد المدببة. وغير بعيد عن المدينة تقع خزائن تيغيران وأرتافاسد في حصنين منيعين: بابيرسا وأولانا. كما كانت على الفرات حصون أخرى. لكنّ آدور قائد الحصن حرّض الأتاغريين على العصيان، إلاّ أنّ قادة قوات قيصر أخذوا الحصن بعد حصار طويل ودمّروا أسواره.

**7-** ويجري في البلاد عدد من الأنهار، أشهرها نهر فاسيس ونهر ليك اللذان يصبان في بحر البونتس (ويخطئ إيراتوسفين عندما يكتب ثيرموندونت بدلاً من ليك)،

بينما يصبّ نهر كير ونهر أراكس في بحر قزوين، ويصبّ الفرات ودجلة في البحر الأحمر.

**8-** وفي أرمينيا بحيرات كبيرة تحمل إحداها اسم مانتيانا[5]، ومعناه «الزرقاء». ويقال إنها أكبر بحيرة مالحة بعد ميوتيدا؛ فهي تتبسط حتّى أتروباتيا؛ وعليها ملاّحات. والبحيرة الأخرى هي بحيرة أرسينا وتدعى أيضاً ثوبيتيدا. وتحتوي مياه هذه البحيرة على الصودا التي تنقّي الملابس وتجددها. ولكن هذا الخليط من الصودا يجعل مياه البحيرة غير صالحة للشرب. ويندفع نهر دجلة هادراً صاخباً من حدود البلاد الجبلية عند نيفات، ليجري عبر البحيرة محافظاً في أثناء ذلك، بسبب قوّة جريانه، على نقاء مياهه وعدم اختلاطها بمياه البحيرة، ومنه جاء اسم النهر، لأنّ الميديين يدعون السهم «تيغريس» (من المعروف أن نهر دجلة يدعى بغير العربية، تيغر- ح.إ). ويعيش في هذا النهر مختلف أنواع السمك، بينما سمك البحيرة من نوع واحد. وعند أقصى نقطة في البحيرة يسقط النهر في هوّة ليجري مسافة طويلة تحت الأرض، ثمّ يخرج إلى السطح عند هالونتيدا[6]. ومن هنا يجري نهر دجلة نحو أوبي، ثمّ إلى سور سميراميس تاركاً وراءه كلّ منطقة الغورديين وما بين النهرين على يمينه، بينما يترك الفرات هذه البلاد عينها على يساره. وإذ يقترب النهران واحدهما من الآخر، يشكلان منطقة ما بين النهرين، ثمّ يجري دجلة عبر سلوقيا إلى الخليج الفارسي، أمّا الفرات فيجري عبر بابل كما أشرت من قبل[7] معارضاً إيراتوسفين وهيبارخ.

**9-** وفي سيسبيريتيدا غير بعيد عن كابالا تقع مناجم الذهب؛ وإلى هناك أرسل الإسكندر مينون مع وحدة من المقاتلين، لكنّ أهل البلاد أخذوه أسيراً وقادوه إلى عمق البلاد[8]. وتوجد هناك مناجم أخرى أيضاً، بما فيها التي يستخرجون منها ما يدعى «سانديك»[9] الذي يدعى بالصباغ «الأرميني»، وهو يشبه اللون القرمزي. وهذه البلاد «غنية بالجياد» (ليست أقلّ من ميديا) إلى درجة أن الجياد النيسية نفسها التي كان يستخدمها الملوك الفرس، كانت تربى هنا. فقد كان والي أرمينيا يرسل إلى الملك الفارسي 20.000 مهر في كلّ عام في العيد الذي يدعى ميتراكينا. ولدى اجتياحه ميديا مع أنطونيو، استعرض أرتافاسد إضافة إلى الفرسان الآخرين، 6000 من الخيل المدرّعة التي اصطفّت في نسق قتالي. ولم يكن الميديون والأرمن وحدهم الذين يهوون هذا النوع من وحدات الفرسان، بل شاركهم هذه الهواية الألبانيون أيضاً، لأنهم كانوا يستخدمون الخيل المدرّعة في حروبهم.

**10**- ومـن العلامـات المهمّـة الأخـرى الـتي تـدلّ علـى ثـراء هـذه الـبلاد، الحادثـة التالية. فقد فرض بومبيوس على تيغيران والـد أرتافاسـد إتـاوة قـدرها 6000 تالانـت مـن الفضّـة، وفي اللحظـة نفسـها وزّع هـذا المبلـغ علـى القـوّات الرومانيـة 50 دراخمـا لكـلّ جنديّ، و1000 دراخما لكلّ قائد مئة، وتالانتاً واحداً لكلّ هيبارخس وكليارخس.

**11**- ويحدّد ثيوفانوس أبعاد هذه البلاد على النحو الآتـي: عرضها 100 سـخين، وطولها ضعف عرضها، عادّاً السخين الواحد يساوي 40 مرحلة. لكنّه يبالغ كثيراً هنـا. فالأقرب إلى واقع الأشياء أن يعدّ الرقم الـذي حـدّده لعـرض الـبلاد رقمـاً لطولها ونصـف هذا الرقم أو أكثر بقليل لعرضها. لقد كانت هذه هي الخاصيات الطبيعيـة لأرمينيـا، وقوّتها.

**12**- أمّا التاريخ القديم لهذا الشعب، فهو على النحـو الآتـي تقريبـاً. فكمـا قلـت من قبل[10]، إن أرمين ينحدر من مدينـة أرمينيـا التسـالية الواقعـة بـين ثيرا ولاريسـا علـى بحيرة بيبا، وكان هذا قد مضـى في حملـة مـع ياسـون إلى أرمينيـا. ويـزعم كيرسـيلوس الفرسالي وميديوس اللارسي، اللذان شاركا في حملـة الإسـكندر، أنّ أرمينيـا أخـذت اسمها منه. وقد استوطن فريق من مرافقـي أرمـين في أكيليسـينا (الـتي كانـت خاضـعة في الأزمنـة الماضـية للسـوفينيين)، بينمـا اسـتوطن فريـق آخـر سيسـبيريتيدا وصـولاً إلى كالاهينـــا وأديابينـــا وراء الجبـــال الأرمينيـــة. ويقولـــون، إن زيّ الأرمـــن زيّ تســـالي؛ فالقفـاطين الطويلـة مـثلاً، الـتي تـدعى في التراجيـديات بالتسـالية، ترفـع عنـد الصـدر بحـزام، وتحبـك الملابـس الخارجيـة بمشـابك، بحيـث يبـدو كـأنّ الممـثلين يقلّـدون التساليين في زيّهم هذا؛ فقد كانوا بحاجة إلى زخرفة أجنبية من هذا النوع؛ ولكـن بمـا أن التساليين كانوا يرتدون ملابس طويلـة أصـلاً (ربّمـا لأنهـم خلافـاً للإغريـق الآخـرين كانوا يقطنون في أقصى الشمال، في أكثر المناطق برودة)، فقـد رأى الممثلـون في هـذه الثياب النموذج الأكثر ملاءمة لمحاكاة الشخصيات التي كانوا يجسدونها في المشاهد الـتي يؤدّونهـا. كمـا جـاء ولـع الأرمـن والميـديين بركـوب الخيـل، مـن التسـاليين أيضـاً. ويشهد على حملة ياسون وجود معابد ياسون التي بنى بعضـها الحكّـام المحلّيـون، مثلمـا فعل بارمنيون عندما بنى معبداً لياسون في أبديرا.

**13**- ويقولون، إن أرمين ومرافقيه دعـوا أراكـس وبينييـوس باسـم واحـد بسـبب تشابه النهرين بعضهما مع بعض؛ فبينييوس يدعى أراكس أيضـاً، لأنـه «فلق»[11] أوسّـا عن أوليمب، وشقّ وادي تيمبييوس. ويروى أن أراكـس الأرمـيني كـان ينهـال قـديماً بعـد

جريانه الصاخب عبر الجبال، على مدى واسع من السهول الواقعة تحتها، ولمّا لم يجد مخرجاً شكّل بحراً هناك. أمّا ياسون فقد شقّ أخدوداً في الصخر وفق نموذج وادي تيمبييوس، تتدفق[12] مياه النهر عبره الآن إلى بحر قزوين. ونتيجة لذلك جفّ سهل أراكسينا الذي يجري النهر عبره إلى منحدر سقوطه[13] في البحر. وثمّة شيء من الحقيقة في هذه القصة؛ أمّا رواية هيرودوت فهي غير واقعية البتّة. فبحسب هيرودوت إن أراكس ينبع من منطقة الماتينيين، ثمّ يتوزّع على 40 فرعاً، فاصلاً بذلك بين السكيثيين والباكتريين[14]. وحذا كاالليسفين حذو هيرودوت.

**14**- ويقولون أيضاً، إن فريقاً من الإينيانيين استوطن في فيتيا، والفريق الآخر إلى الأعلى من الأرمن، وراء جبليّ آب ونيبار. ويشكل هذين الجبلين جزأين لا يتجزآن من طوروس؛ ويقع آب على مقربة من الطريق التي تقود إلى إيكباتانا غير بعيد عن معبد باريدا. وتقول الروايات، إن جماعة من التراقيين تدعى السارابايين، «قاطعيّ الرؤوس»، سكنوا فوق أرمينيا بجوار الغورانيين والميديين؛ وهؤلاء قبيلة من الوحوش البشرية الجبلية العصية الذين يسلخون فروات الرؤوس ويقطعونها، لأنّ هذا معناه «سارباريون». وأنا كنت ذكّرت بأسطورة ميديا أثناء وصفي لميديا. ولذلك فإن مقارنة هذه الأخبار كلّها تقودنا إلى القول، إنّ هناك أواصر قرابة تربط بين الميديين والأرمن، وإلى حدّ ما بين التساليين وأحفاد ياسون وميديا.

**15**- تلكم كانت الحكاية القديمة. أمّا القصة الأحدث عهداً عن الأحداث التي وقعت منذ سيطرة الفرس وما تلاها وصولاً إلى زمننا هذا، فربّما يكون من الأفضل أن نعرضها باختصار على النحو الآتي. في أوّل الأمر استولى الفرس والمقدونيون على أرمينيا؛ ثمّ سيطر عليها بعد ذلك أولئك الذين خضعت لهم سوريا وميديا؛ وآخر الذين استولوا على أرمينيا، هو أورونت حفيد هيدران وأحد الفرس السبعة[15]. ثمّ قسم أرتاكسوس وزاريادرس قائد قوات أنطوخ الأكبر الذي حارب الرومان البلاد إلى شطرين. وقد أدار هذان شؤون البلاد بتكليف من الملك. ولكن بعد أن هزم الملك أمام الرومان، انتقلا إلى صفّهم، وبعد أن توّجا ملكين نالا استقلالهما. وكان تيغران خليفة أرتاكسوس مالكاً فعلياً لأرمينيا، فهذه المنطقة تجاور ميديا، وألبانيا، وإيبيريا وصولاً إلى كولهيدا وقبدوقيا على البونتس الإيفيكسيني؛ أمّا خليفة زاريادرس فكان السوفيني أرتان[16]، الذي خضعت له المناطق الجنوبية، والمناطق الواقعة إلى الغرب منها. وقد هزم تيغران هذا الأخير وملك على البلاد كلّها. وكان مقدّراً لتيغران أن

يصارع تقلّبات القدر على اختلافها. ففي بادئ الأمر عاش رهينة لدى البارثيين؛ ثمّ نجح بعد ذلك في نيل إذن منهم بالعودة إلى وطنه، لكنّ البارثيين أخذوا منه فدية 70 وادياً في أرمينيا. ولكن، بعد أن قويت شوكته لم يكتف تيغران بانتزاع هذه المناطق من البارثيين، إنما غزا بلادهم نفسها ونهبها: المناطق المحيطة بنين وأربيل. ثمّ أخضع بعد ذلك حكّام أتروباتينا وغورديبيا، واستولى بمساعدتهم على ما تبقى من وادي الرافدين. وعبر بعد ذلك الفرات ليأخذ سوريا وفينيقيا عنوة. وإذ بلغ هذه الدرجة من القوّة والجبروت، أسّس تيغران مدينة على مقربة من إيبيريا[17]، بين هذا المكان وزيغما على الفرات. وبعد أن ساق إلى هنا سكّان 12 مدينة إغريقية غزاها ونهبها، دعا هذه المدينة تيغرانوكيرتا. ولكنّ لوكولاّ الذي شنّ حرباً على ميتريدات وصل إلى هنا قبل أن يكتمل بناء المدينة، ولم يكتف بإطلاق سكّانها كلّ إلى مدينته الأم، بل دمّر النصف الذي كان قد اكتمل بناؤه من المدينة، ولم يبق إلاّ على قرية صغيرة[18]. وبعدئذٍ طرد لوكولاّ تيغران من سوريا وفينيقيا. لكنّ خليفته أرتافاسد أفلح طالما بقي على تحالفه مع الرومان، ولكنّه بعد أن خان أنطونيو أثناء حرب هذا الأخير ضدّ البارثيين، ناله عقاب صارم. فقد جاء به أنطونيو إلى الإسكندرية، وجال به في موكب نصره مقيداً، ووضعه تحت الحراسة لبعض الوقت، لكنّه قتله عندما بدأت الحرب الأكتية. وبعد أرتافاسد حكم البلاد عدد من الملوك الذين كانوا تابعين لقيصر والرومان؛ ولا تزال البلاد موجودة حتّى الآن وتدار وفق الأسس نفسها.

**16**- ويبجّل الميديون والأرمن الطقوس الفارسية المقدّسة كلّها. ولعبادة أناهيتا مكانة خاصة عند الأرمن الذين بنوا على شرف هذه الإلهة معابد في شتّى أرجاء البلاد، بما في ذلك أكيليسينا. وكرّسوا فيها عبيداً وإماء لخدمة الإلهة. وليس ما هو غريب في هذا. فصفوة وجهاء القبيلة يكرّسون بناتهم للإلهة أيضاً. وعند هؤلاء عادة تقضي بألاّ يتزوّجن قبل أن يقضين زمناً طويلاً يعاشرن الرجال خلاله في معبد الإلهة مقابل أجر، ولم ير أحد أي عيب في أن يتزوّج مثل هذه المرأة. ويروي هيرودوت عن شيء ما يشبه هذا لدى النسوة الميديات[19]؛ فيقول إن كلّهنّ يمارسن الفجور والتهتّك. ويتعاملن مع عشاقهنّ في أثناء ذلك بكل رقّة، فيقدمن لهم الضيافة، ويتبادلن معهم الهدايا، وليس نادراً أن يعطينهم أكثر مما يأخذن منهم، خاصة أنهنّ ينتمين أصلاً إلى عائلات ثرية تقدم لهن موارد كافية لهذه الأغراض. وعلى وجه العموم لا تستقبل هؤلاء النسوة أيّاً كان من الرجال، إنما غالباً الرجال الذين ينتمون إلى طبقتهن الاجتماعية نفسها.

ســـــترابـــون ـــــــ